عمرو العادلي

قبل المساء

رواية

الدار المصرية اللبنانية

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

قبل المساء

رواية

العادلي، عمرو.
قبل المساء: رواية/ عمرو العادلي. - ط1. -
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.
208 ص؛ 20 سم.
تدمك: 2 - 198 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 19497 /2018

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah. com
www. almasriah. com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2019م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

عمرو العادلي

قبل المساء

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إلى أبي أينما كان..

حياتنا ومضة سريعة، لكنها كافية.

كزانتزاكيس

1

السَّحَر

أمي هي التي اختارت اسـمي، ذات يـوم قالوا لي ذلك، جاءها الطلق مصاحبًا لسـماع شـيخ كفيف يقرأ في المقابر: "يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسَـلامًا عَلَى إِبْراهِيمَ" فأعجبها لُطف الله بمن يحملون هذا الاسم.

ذلك ما سـمعته ولم أره، أما ما وعيتُ عليه بالفعل أنني وُلِدتُ لأسرة مُكوّنة من أب وأم وسبعة أبناء ذكور وبنت واحدة، هذا بخلاف من مات قبـل أن يتـمّ عامـه الأول. كان ترتيبـي الثاني، يسـبقني محفـوظ ويتبعني سِرب من الإخوة لا أول له ولا آخر. لم تكن ظروف الأسرة تسمح بأكل الخُبز الحاف، إن وُجد، فأبي هو الآخر كان فردا في أسرة مكونة من أحد عشر أخا، وبعد توزيع ثلاثة أفدنة عليهم أصبح نصيب أبي ثمانية قراريط زراعية فقط لا غير، وميراثه من البيت الكبير الذي كان يملكه جدي غرفة مستطيلة تطلّ على بِركة، يسميها أبي "الدار" وهي التي نشأت فيها.

فـي ذلك الزمن لـم يكن للطفـل رأي، حتى عندما يكبر ويصير شـابا لا يجوز له أن يفكر مادام له أبٌ موجود، فالإدارة كلها في يده، هو الأب والرب، يتصرف في جميع الأمور كيفما شـاء، ولو وقع منه خطأ بيّن فلا يجوز لأحد مراجعته أو نَسب الخطأ إليه، ولو فعل أحد الأبناء ذلك يكون عاصيـا خارجا عن الطوع، ولا تختلـف الأم كثيرا عن ذلك، مغلوبة على أمرها أكثر من الأبناء، فلو ردّت كلمة لرب الأسرة كان مصيرها بيت أبيها أو أخيها.

في عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين كان التعليمُ بالمدارس مجانيًا، لكن كيف سيتركني أبي أتعلم بينما يمكن الاستفادة مني لجلب قرشين كل طلعة شمس مع عُمّال التراحيل، أو في محلج القطن، أو يرسلني مع أقراني الصِغار لأقف على ماكينة في مصنع الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى؟ فقد وُلِدتُ في زمنٍ لو مرض فيه طفل لتركه أهله لقَدَره، إما أن يُشفى من تلقاء نفسه؛ أو يحمل اسمَه أخوه الذي يأتى من بعده.

عندما أكملت سِن الإلزام دعتني المدرسة بتكليف من وزارة المعارف العمومية، خطاب رسمي لم يهتمّ به أبي، قال لي: "ماذا سيفعلون إن لم تذهب؟". ويعترض خالي الشيخ حفني مُحفّظ القرآن على ذلك، يقول لأبي: "لابد أن يدخل إبراهيم المدرسة، وإلا ستتعرض للحبس والغرامة"، قدَّم أبي رشوة للخفير الذي جاءه بخطاب وزارة المعارف، وكان النصيبُ سبّاقًا، فقد تولى خالي الشيخ حفني الأمر بنفسه وذهب لتقديم أوراقي الرسمية إلى المدرسة. وبذلك أصبحت أول فرد في العائلة يجلس على "تختة"، وينظر إلى مدرس يقف أمام سبورة سوداء مكتوب على رأسها التواريخ الثلاثة، الميلادي والهجري والقبطي، ورأيتُ لأول مرة أشخاصا يضعون فوق رؤوسهم طرابيش حمراء.

انتهزت الفرصة منذ اليوم الأول، حاولتُ أن أستوعب كل كلمة يقولها المدرس، إذا كتب حرفا على السبورة كنت أكتبه وراءه خمس مرات وأنطقه عشرا، أنقشه في الكراسة وفي خيالي، على الهواء والجدران، أذهب إلى الدار التي تطل على بِركة، أشعل اللمبة أم فِتْل لمراجعة الكلمات، ويطفئها أبي ليوفّر الكيروسين. في تلك اللحظات

بالذات كنت أكرهه، أشعل اللمبة عندما ينام، أذهب بها إلى دورة المياه مرة أخرى، أظل بالداخل لأكثر من ساعة، أحفظ المعاني في صميم وجداني، أراها كما لو كانت كائنا مستقلا عني، يتنفّس حروفا وكلمات.

وأخيرا، أتممت مرحلة الدراسة الابتدائية بنظام الأربع سنوات في سن الثالثة عشرة، كنت متفوقا لدرجة أنهم أعطوني قطعتي قماش كشمير ومصحفًا كبيرًا وجنيهًا صحيحًا مرسومًا عليه جمل أحمر. تطلعتُ بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من حياتي، فقد أصبح من حقي أن ألتحق بمدرسة المعلمين لأتخرج مدرسا تحت التمرين بعد أربع سنوات، ألبس الطربوش الأحمر أبو زِرّ، أمامي أطفال وخلفي سبورة، في يدي قلم طباشير وفي رأسي معلومات تختصر الدنيا كلها في حفنة كلمات.

لكن أسرتي أجمعت على رفض التحاقي بالمدرسة، فذلك سيكلف الأسرة مبلغا باهظا، خمسين قرشا في الأسبوع، يعني جنيهين كل شهر، والدراسة ثمانية أشهر في السنة، يعنى ستة عشر جنيها كل عام، وبهذه الحِسبة البسيطة ستتكلف دراستي طوال الأربع سنوات مبلغا طائلا وهو أربعة وستون جنيها، كيف يمكن أن يحدث ذلك وقيراط الأرض لا يتعدّى ثمنه مبلغ عشرين جنيها؟ لذلك؛ اتفقت العائلة بالإجماع على الاكتفاء بهذا القَدر من التعليم.

***

في إحدى ليالي صيف 1952 حضر إلى بيتنا خالي الشيخ حفني ومعه رجل لا أعرفه، سبب الزيارة كان إقناع أبي بضرورة تكملة دراستي في مدرسة المعلمين، قال خالي لأبي "الدنيا تتغير بسرعة البرق يا شيخ

سيد، فمجموعة من ضباط الجيش الصغار تمكنوا من طرد الملك، لم تعد الدنيا هي نفسها التي كنا نعرفها. وقيراط الأرض قفز سعره في بعض الأماكن إلى ثلاثين جنيها".

يُثبّت أبي نَظَره في عين خالي: "وماذا بعد يا شيخ حفني؟". ينتقل خالي مباشرة للسبب الذي جاء من أجله: "الولد نابه ودرجاته عالية، لا تحرمه من الالتحاق بمدرسة المعلمين، لو كان لي عندك معزَّة لا تردّني مكسور الخاطر يا شيخ وحياة حبيبك النبي".

لم يرد أبي على خالي الشيخ حفني، أشار لي أولًا بترك المجلس، تظاهرتُ بالابتعاد، ثم عبرت البِركة على لوح خشب عريض، وقفت تحت الشباك أتنصت على حوارهم دون أن يروني، فاتتني بعض الكلمات أثناء خروجي، سمعت صوت أبي عاليا، كأنه يكلم أحد أبنائه: "اسمع يا شيخ حفني، الولد لن يذهب إلى مدارس، وإن كنت تستطيع دفع أربعة وستين جنيها لأحد أبنائك فأنا لا أستطيع". فترة صمت تمر، سرعان ما يعود الصوت نفسه لكنه خفيض بشكل ملحوظ: "ثم إنني أحتاج إليه بالفعل ليساعدني في عملي، من الذي سينقل السباخ، من الذي سيرعى الجمل والبقرة العُشر، من الذي سيأخذ بيدي في الزرع والقلع؟ إبراهيم هو أكثر أبنائي طوعا، وهذه، من سيمسكها ويهشّ بها على طيور الدار؟" تخيّلته يرفع خيزرانتي الصغيرة في الهواء، لم يعطني صمته الفرصة للسرحان طويلًا فعاد يقول: "لم تعد أمه تستطيع القيام من مكانها بعد أن هدّتها اثنتا عشر بطنا، مات منهم من مات ونجا من نجا. لقد أصبحت كهلا في الخامسة والأربعين يا شيخ حفني، أعاني من وجع الظهر وضيق الخطوة وضعف النظر، وأحتاج لمن

يساعدني". يردّ خالي بتأنٍ باحثًا عن أي ثغرة لكسب القضية: "سيساعدك بطريقة أفضل لو أنه أصبح مدرسا له قيمة يرفع من شأن العائلة كلها".

أسمع صوت الأكواب تصطكّ ببعضها على الصينية الألومنيوم، ويتسلل صوت أبي: "تفضلوا الشاي".. فترة صمت تمر، دقيقة، دقيقتان، بدأت أشعر وكأن الضيوف قد انصرفوا، قطع صوتُ خالي الشيخ حفني الصمت: "نسيت أعرّفك على الأستاذ محمد موسى شاهين، مدرس بمدرسة الصنايع". "تشرفنا" قال أبي، ثم أضاف: "يا ألف أهلا. يا مرحب يا مرحب". وسمعت صوتا غريبا لم آلفه من قبل: "طيب.. ما رأيك يا شيخ سيد في أن أُلحِق إبراهيم بمدرسة الصنايع. سيتخرج مساعد مهندس بعد أربع سنوات". لم يرد أبي، ولكن خالي رد: "والله فكرة حلوة. ما رأيك يا شيخ سيد؟ الأستاذ محمد له كلمة مسموعة في مدرسة الصنايع". وينخفض صوت أبي بشكل ملحوظ: "كم ستكون تكلفة الدراسة في هذه المدرسة؟". فيرد الأستاذ محمد: "قرشان فقط في اليوم للمواصلات. قرش للذهاب وآخر للعودة. فالمدرسة ليس لها مصاريف". وسمعت من خلف الشباك صوت كوب شاي يوضع بقوة على الصينية الألومنيوم مُصاحِبا لصوت أبي: "موافق". وقفزت خلف الشباك من شدة الفرح. تنازل خيالي عن لبس الطربوش الأحمر أبو زرّ، فمدرسة المهندسين على أية حال أفضل من المشي خلف جمل مُحمّل بالسباخ، أو الاهتمام بحبس طيور الدار في عشّة فوق سطح غرفة تطل على بِركة.

تركتُ الشباك ودخلت، ووقفت قريبا من مجلسهم، خلف أجولة مليئة بالذرة الناشفة المُعدة للطحين، لا يظهر إلا رأسي فقط. قام أبي وأحضر

الدوسيه الذي يضم أوراقي، تسلمه منه الأستاذ محمد موسى شاهين، قال وهو يتمم على محتوياته: "سيتحدد موعد الكشف الطبي وكشف الهيئة بعد أسبوع". ثم طوى الدوسيه تحت إبطه وهو يُمرّر عينه عليّ من بين أجولة الطحين، ويقول لأبي الذي تأخر بخطوة: "تنقص الأوراق ثلاث صور". شكلت ذراعا أبي علامة تعجب، ولم يرد، لكن خالي الشيخ حفني رد: "لا تحمل همًّا. سأقوم بتصويره غدًا في بنها".

اتسعت الغرفة المستطيلة في عيني، وبدّدتْ كلمات خالي كل ضيق، رأيتُ أبي وهو يتبع خالي الشيخ حفني والأستاذ محمد موسى شاهين لغاية الباب، تعثرتُ في الطبلية وأنا خارج من بين كراكيب الخزين، قُمت وأنا أحكّ رأسي من تحت الطاقية بسعادة بالغة.

كان ذلك اليوم من أسعد أيام حياتي، اشترى لي خالي الشيخ حفني رغيفين طويلين، لهما شكل محمّص وخبزهما يذوب في الفم بأقل مجهود من المضغ، محشوين بأقراص طعمية ساخنة، كنت أعرف الطعمية ولكني لم أذق طعم هذا الخبز الطويل الهش من قبل: "ما هذا يا خالي؟". فيردّ وهو يضع القرص الساخن في رغيفه العجيب: "عيش بازاوانج. يسمونه في البندر فينو".

تحت كوبري بنها اقتربنا من رجل يقف وأمامه صندوق أسود موضوع فوق ثلاث أرجل خشبية، بينها دلو نصفه مليء بماء عكر: "قف هنا يا إبراهيم". وقفت كما أمرني خالي فبدأ بتوجيه كلماته للرجل: "شوف شغلك يا عم". كان الرجل يفعل حركات مُضحكة، لكن ملامحه في منتهى الجدية، وجّه إليّ تعليمات صارمة: "انظر هنا.. هنا يا ابني. ابتسم.

ليس هكذا. لا تضحك. لا تكشّر. افرد بوزك. افرد. تمام. ابتسم. اثبت دقيقة واحدة. اثبت". كانت المرة الأولى التي أتلقى فيها تعليمات جادة بهذا الشكل الصارم وأنا أقف في الشارع. كلما نظر إليَّ خالي كنت أمتثل لسماع الكلام، أدخل الرجل رأسه في صندوقه الأسود وثبتتْ حركتُه كالتمثال، ثم سمعت صوتا يخرج من الصندوق المربع: "واحد. اثنان. ثلاثة". يُخرج الرجل رأسه وأنا لا أزال مبتسما، وسمعت صوت خالي: "خلاص". بعد قليل أخرج الرجل ورقة سوداء بحجم الكف، رماها في دلو الماء بجوار قدميه، ثم غطّسها بيده عدة مرات، أخرج الورقة من الماء فرأيت ملامحي تتشكّل على سطحها، هي أنا، أنا تماما. قصَّها الرجل فصارت أربع صور، أعطاه خالي أربعة قروش وانصرفنا، سمعتُ صوت المصور آتيًا من الخلف: "ربنا يبارك لك فيه. ناقص قِرش يا شيخ العرب، البلد أصبح في غلاء سيدنا يوسف".

تجولتُ مع خالي في دروب مدينة بنها حتى أذّن المغرب، عدنا إلى القرية على ظهر جرار زراعي استغرق أكثر من ساعة في طيّ عشرة كيلو مترات.

علا منسوب مياه البِركة، فلم يعد من السهل أن أدخل الدار بمفردي، أخذ خالي بيدي فوق اللوح الخشبي حتى تمكنت من العبور، أشار لي بفرح وهو يرفع قفطانه بعيدا عن المياه: "ضع الصور تحت المخدة وحافظ عليها جيدا. سأمرّ عليكم غدًا بعد أن تأتي من الكشف الطبى".

***

في صباح اليوم الموعود سمعتُ صوت محمد أفندي موسى شاهين بالخارج "يا بشمهندس إبراهيم". لمس اللقب المازح في نفسي فخرا لم آلفه من قبل، بعد أقل من عشر دقائق أصبحتُ جاهزا، جلابية بلما نظيفة وبُلْغَة بُنّي لامعة، رائحتي مُعطَّرة بصابون نابولسي فاروق وشعري مدهون بالزبدة ومصفّف على طريقة "الكاريه"، كنتُ حريصًا جدًّا وأنا أخطو فوق المَعبر الخشبي، رأيت نفسي كائنا نظيفا لا يليق به التواجد بجوار بِركة، كانت أسرابُ الحمام تحوم حول أبراجها التي يتخطى طولها جميع البيوت، حمامات بيضاء صغيرة ترفرف تحت سماء صافية، في ذلك الصباح كانتْ رئتي مُستعدة لسحب أكبر قدر ممكن من الهواء.

جذبني الأستاذ محمد موسى شاهين من يدي: "الكشف الطبي مُهم جدا يا إبراهيم، من غيره لا تُقبل أوراقك في مدرسة الصنايع". زادتني كلماته رعبا فوق رعبي، وقبل أن تسرح بي الهواجس المتشائمة أضاف: "أقول ذلك لتأخذ بالك جيدًا. وخاصة أن الكشف في هذه المدرسة يتم مرة واحدة دون إعادة أو تظلُّم".

كان الكشف الطبي في مكان شاسع لا سور له، صحراء لا يحدّها شيء، حوش كبير تتوسَّطه بناية صغيرة من دورين. سلَّم محمد أفندي دوسيه الأوراق وانتظرني بالأسفل، صعدت وفي يدي كارت كرتون صغير مكتوب عليه اسمي ورقم ثلاثي، سلَّمتُه في الدور الأول فاقتادني عسكري إلى الدور الثاني، انتظرت أمام غرفة خرج منها ولد في مثل سني يهندم ملابسه على عجل، كان مرتبكا ويده في يد العسكري، دخلت إلى طبيب الكشف، كان أمامه مكتب محطوط فوقه صندوق جهاز ضغط

وسماعة فضية، لم يتحدث إليّ لكنه أشار إلى سرير صغير فاتجهت ناحيته، نمت ورفعت ملابسي، انتظر حتى انتظم تنفسي، وضع سماعته الباردة فوق بطني، اتكأ بكل ثِقله على صدري، اتجه ناحية المكتب وأشار لي أن أتبعه، نظر في فمي وأنفي وأذني، ثم وقَّع على الكارت الذي كان في يدي، ضغط على زرّ فدخل العسكري الذي ساقني إلى غرفة الكشف منذ دقائق، أشار له بالقلم: "خُذه إلى كشف اللياقة".

نزلت إلى حوش كبير، وقفت في طابور طويل أنا ومجموعة من الأولاد، صفَّر رجل غليظ الملامح بصفارته فانطلقنا نعدو خلف لا شيء، اقتربنا من عسكري آخر يقف بعيدا، فصفَّر هو الآخر بصفارة يعلقها في عنقه، عدنا مسرعين إلى حيث جئنا، قطعنا المسافة ذهابا وإيابا حتى انقطعت أنفاسنا وخرجت ألسنتنا من اللهاث، أوقفونا في صف جديد ثم نمنا على ظهورنا، أمسك العسكري بركبتي وأمرني بوضع كفيَّ خلف رأسي ثم القيام بجذعي فقط، كانت حركة متعبة جدا لم يسبق لي معرفتها من قبل، كلما فَتَرتْ هِمّتي كنت أتذكر كلمات محمد أفندي موسى شاهين "الكشف الطبي ليس له إعادة أو تظلّم". أي أنها فرصة ستأتيني في العمر مرة واحدة كليلة القدر، رأيت العيال من حولي يصخبون ويصرخون، منهم من شقّتْ آلامه فضاء الصحراء من حولنا، ومنهم من أجبره الألم على البكاء، وأنا أيضا، كان بيني وبين البكاء ثانية واحدة، لكن العسكري صفَّر في اللحظة المناسبة.

منحونا راحة لمدة ربع ساعة، تعرفت فيها على الولد محروس عبادة والولد سيد النجدي، تبادلنا زجاجات الاسباتس وقطع الفطير، قال الولد

محروس: "لا تُثقلوا في الطعام. سيدربوننا مرة أخرى". وقال الولد سيد النجدي: "لا يا مغفلين. هم يعطوننا الفرصة لنستريح. ثم يعطوننا بعد ذلك نتيجة الامتحان".

بعد انتهاء مهلة الراحة صفَّر العسكري فقمنا نجري دون تحديد وجهة معينة، قال العسكري بعد أن انتظمنا في صفوف: "غدًا ستظهر النتيجة. احضروا في التاسعة صباحا".

هيّص العيال وخرجت بصحبة الولد محروس عبادة، والولد سيد النجدي، في تلك اللحظات نسيت محمد أفندي موسى شاهين، لم أتذكره إلا عندما رأيته يلوّح لي ببعض الأوراق في يده عند مدخل الحوش، صافحت أصدقائي الجدد وخرجت.

"مبروك يا إبراهيم". قال ولم أفهم: "على ماذا يا أستاذ محمد؟". فقال بفرحة حقيقية: "على نتيجة الكشف". توقفت عن المشي: "قال العسكري إن نتيجة الكشف ستظهر غدا". فأخرج محمد أفندي من صدريته ورقة وفردها: "جبت لك النتيجة قبل أن تخرج من أرض التدريب. هل نسيت أنني مدرس منذ أكثر من عشرين عاما في مدرسة الصنايع يا إبراهيم؟". بعض الكلمات لا يتم استيعابها إلا على حلقات، لم أصدّق أنني نجحت وأصبحت مؤهلا لأن أصبح مساعد مهندس بين عشية وضحاها، هكذا بمنتهى السهولة؟! "هل نجح الولد محروس عبادة والولد سيد النجدي؟" سؤال لم يستمر طويلا في رأسي، ذاب وسط فرحتي الكبيرة. لم أصدق نجاحي برغم كل التأكيدات. لم يبق إلا كشف الهيئة بعد ثلاثة أيام، أصبحت بيني وبين دنيا المهندسين خطوة واحدة.

أذّن المغرب قبل أن نصل إلى الدار، انسحبتْ الشمس عن المياه فاسودّ لونها، أمام اللوح الخشبي وقفنا، رفع محمد أفندي يده مودعًا، قفزت فوق المعبَر وأنا في غمرة من خيال، أرسم المستقبل ولا أبالي بأي شيء آخر. ابتلع الظلام محمد أفندي ببدلته السوداء، لم يبق منه إلا طيف يتجول في رأسي.

***

في اليوم التالي لم يأت أبي معي إلى الغيط، جمعتُ قليلا من الباذنجان والفلفل كما طلب مني، ثم جلست أغلب ساعات النهار أخربش أحلامي بعصا على الأرض الترابية، حمّلت نقلة سباخ وعدت إلى الدار، في المساء سألت أبي: "ألم يأت محمد أفندي؟". كانت أمي تضع العَشاء على الحصيرة السمار، والناموس يتحلق حول اللمبة السهاري، شُعلتها تتحرك فتلعب بالظلال على الجدران وأجولة الخزين، كان رأس أبي محنيًا ينظر في الأطباق ويُديم النظر، دحرج بيضة مسلوقة بسبابته في الطبق أكثر من مرة: "اجلس يا إبراهيم. كُل. زمانك جُعت". جلستُ ووقفتْ أمي من خلفي، كنت جائعا بالفعل، الطبق فيه بيضتان، أخذتُ واحدة وتركتُ لأبي الأخرى، رفعتُ رأسي ونظرتُ لأمي، فقالت وهي في وضع ثابت: "أنا أكلت يا إبراهيم كُل أنت". فاندمجتُ مع البيضة والجبنة القديمة والرغيفين الساخنين، ثم رفعت شفشق الماء الباغ وأنزلته فارغا، تكرعت ووخم جسدي فأسندتُ ظهري إلى الكنبة، وفي لحظة كأنها حلم سمعت صوت أبي: "اسمع يا إبراهيم"، وقبل أن أسمع شيئا، وقبل أن أعرف عن ماذا سيتكلم انقبضتُ، انتابتني رعشة داخلية حاولتُ كتمانها قدر استطاعتي، فقد نطق كلمة "اسمع" بلحن

حزيـن أعرفه جيدًا، كان ضغط أبي علـى الحروف يُبيّن فحوى ما يقصده دون تفسـير، لم يكن أمامي خيار إلا الانتظـار: "نعم يا أبي". بعد أن تأكّد من شبَعي قام وتقرفص فوق الكنبة: "محمد أفندي جاء إلى هنا بعد صلاة الظُهـر، وقـال إن الأوراق الخاصة بـك لم تُقبل في المدرسـة". أنظرُ في عيني أمي الواقفة، وأمي تنظر في عيني أبي الجالس، وأبي يبعد عني عينه قدر اسـتطاعته، تتـوه كل التعبيرات والإيحاءات قبـل أن يبتلعها الظلام، والصينيـة الألومنيوم الكبيرة التي تحمل بقايا الخبز والجبنة القديمة تلفّ من تلقاء نفسـها، والناموس الذي يتحلّق حول اللمبة السـهاري يقع فوق النار ويذوب، ورائحة الماء العطن تهبّ قوية ومُقبِضة، لم أدرِ بنفسي وأنا أنتفـض واقفا، أمشـي كالمنوّم باتجـاه باب الخروج، لـم أمشِ على لوح الخشـب لأعبر المـاء الراكد، بل خُضـتُ في البحر الأسـود الصغير غير مُبالٍ، ببرودة شـديدة تضرب نصفي الأسـفل، ونصفي الأعلى تحوّل إلى أذن كبيـرة تسـتمع إلى كل الأصـوات دفعة واحدة، طنين هـوام يدور في السـديم، نعير جاموسة أهلكها الشقاء، حفيف أقدام تدق التراب، صوت الماء الذي يموج من ضربات قدمي الغاضبتين. ووسط كل هذا الضجيج أسمع صوتين مختلفين يتسربان من خلفي: "إبراهيم. يا إبراهيم".

سـحبتُ اللوح الخشـبي كـي لا يلحق بي أبـي أو أمـي، ألقيت به في المـاء وجريت، كانت وجهتي دار محمد أفندي، الوقت متأخر ولا تجوز الزيارات بعد العِشـاء، الموضوع أخطر ممـا يجوز وما لا يجوز، أرهقني التفكيـر، لكـن الظـروف تعمـل لصالحي، فقـد كان الرجل جالسـا على مصطبـة أمام منزله، ما إن رآني حتى قام وجرى ناحيتي: "إبراهيم؟ المياه تُغـرِق الجلابيـة. والطين فوق قدميـك. اجلس"، وجلسـتُ إلى جواره،

بكيت بشدة كأن لم أبكِ من قبل، أخذني محمد أفندي ودفع المياه على قدمي من طلمبة خلف داره، ناولني حِرامًا كان يفرشه تحته: "جفّف قدميك وملابسك". أجلسني بالقرب منه وطلب من ابنته بالداخل أن تعمل الشاي، وجاء الشاي بعد قليل، سرقتُ نظرة من البنت التي قدّمته من خلف ستار قماشي سميك، طلّة حسناء ويد بيضاء وكوبان صافيان من شاي لم أذق مثل حلاوته من قبل.

"لماذا رفضوا أوراقي بالمدرسة يا محمد أفندي؟" قلتُ بعد أن شربتُ نصف كوب الشاي وبدأتُ أشعر بالدفء، لكن رد محمد أفندي موسى شاهين أعاد البرودة إلى أوصالي مرة أخرى: "من قال لك هذا؟". أنزلتُ الكوب عن فمي، وبقايا بُخار الشاي تُظلل الرأس الذي يكلمني: "أبي قال لي". سعل محمد أفندي سعلة مصطنعة: "بُص يا إبراهيم. أنا لم أعتد الكذب مهما كان السبب. أوراقك قُبِلت في المدرسة فقرة (أ) بسبب ارتفاع درجاتك، يعني كنت من أول عشرة طلاب تم قبولهم. لكن أباك جاء إلى هنا بعد صلاة الظهر وطلب الأوراق الخاصة بك وقال: "خلاص. إبراهيم لن يدخل المدرسة". وطب مني ألا أبلغك بذلك".

وضعتُ كوب الشاي ومشيت دون استئذان، طالت البرودة كل جسدي، وشعرت بدماغي أيضا باردا، لفَّ الضباب كل ما وقعتْ عليه عيني، لم يعد هناك شيء واضح، مشيت حتى تورمت قدماي، اهتزت أمامي البيوت الطينية والمآذن الصغيرة، نظرت لقدميّ فكانت إحداهما فاقدة للحذاء، انخلع عنها دون أن أشعر، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا ملقى على مصطبة غريبة أمام بيت لا أعرفه، حوافر بهائم الصباح حرثت الأرض

وقلّبت التراب، أيقظني الغبار الدوّار من غفوتي، كانت الشمس تجاهد لتصل إلى بدني، لكنّ سحابة في السماء الغائمة اعترضتها ومنعتها، قمتُ، اغتسلت من طلمبة في الطريق وتوجهت كالمنوّم إلى الغرفة المستطيلة التي تطل على بِركة.

***

دخلتُ وأنا أمشي على أطراف أصابعي كاللصوص، لا أودّ أن أرى أبي، كنت أشعر بأنه سيكذب مرة أخرى، وربما مرات كثيرة قادمة، تخيّلته سيكذب عليَّ للأبد، لا أحب رغم كل شيء أن أراه وهو مضطرٌّ للكذب، وأمي أيضا، دائما ضعيفة وغير مرئية. خيّم الصمت على البيت، إخوتي الصغار نائمون، يغطيهم كليم صوف ثقيل وتسبح فوقهم دوائر الأحلام، أمي نائمة وأبي غير موجود.

في ركن قصي خلف غرفتنا المستطيلة لمحته واقفا أمام رصة طوب يقوم بِعَدّ القوالب، يغرز سبابته بين الصفوف: "مئة وثلاثون. وأربعون. وخمسون...". دخلت ولم يشعر بوجودي، كان مندمجا ويخشى نسيان العدد، التفت إليّ: "تعال يا إبراهيم. مئة وخمسون + ثلاثمائة وخمسة وعشرون. كم يكون العدد؟". حسبتها بسرعة: "أربعمائة وخمسة وسبعون". هرش خلف أذنه ووضع يده الأخرى في قبّة الجلابية: "رشيد صاحب الجرار ضحك علينا في خمس وعشرين طوبة". اقتربت من أبي الذي بدا عليه شحوب الهمّ: "ماذا ستفعل بهذا الطوب؟". أخرج يده من قبّة الجلابية ووضعها على كتفي: "بُص يا إبراهيم أفندي، أنا كلمت رشيد صاحب الجرار يجيب لنا نقلتين تراب لردم البِركة. واشتريت الطوب من

أجل ضمّها للدار وتوسيعها". قال أبي ثم اهتزت يده فوق كتفي، أمسك بذراعي ثم تهاوى، عندما طال جسده الأرض كان في وضع الجلوس يشهق شهقات متتابعة وعينه تنظر لأعلى، فجلست إلى جواره وأنا أنتفض من شدة الخوف، غطّت طاقيته جبهته وابيضّت عيناه، خرج رغاء أبيض من فمه، أنفاس متقطّعة لم يستطع بعدها سحب الشهيق، شخر شخرة طويلة، ثَقل جذعه على ذراعي فصرختُ: "أمي. يا أمي".

بعد الفجر جاء خالي الشيخ حفني ومعه بعض الأقارب، ملأ الشباب بستلّات المياه ورشوها خلف الدار، وفي المساء قرأ خالي ما تيسر من القرآن، ووقفت أنا ومحفوظ لتلقي العزاء طوال الليل. بعد العِشاء عاد كل شيء كما كان، إلا أبي، الوحيد الذي تغير مكانه.

دخل خالي وأوصانا بأمنا خيرا، كانت أمي تقرفص بعيدا لا تريد الحديث مع أحد، وإخوتي الصغار نائمين كما هم، وكأنهم لم يستيقظوا منذ ليلة أمس، يستفيض خالي في الحديث طويلا، رضا الرب، والجنة التي تحت أقدام الأمهات، لم يحصد إلا هزات من رؤوس الجالسين، لم يتفاعل معه أحد برغم كلامه عن الأشياء الطيبة التي فعلها أبي قبل موته، والجنة التي هي المصير المتوقع، والعلاقة بين ليلة شتاء قارسة كتلك الليلة وبين ماء البَرَد مُغَسِّل أبي الحتمي، وأشياء أخرى مُطمئنة من هذا القبيل.

"وصّيهم يا شيخ حفني، قول لهم يا اخويا. محفوظ وإبراهيم بالذات. ليس لي غيرهما بعد الآن".

قالت أمي بعد صمت طويل دام ليلة بأكملها، فبعد أن قلّبت أبي يمينا ويسارا، وبعد أن تأكّدت أن أمر الله نفذ أغمضت عينها وصمتت، جريت

أنا ومحفوظ، جئنا بمقطع اللحد وخشبة الغُسل، كنتُ وكأنني أجهّز لدفن أحد لا أعرفه، شخص آخر غير أبي، بسرعة، أصبح مجرد ذكرى.

تركَنا خالي بعد إسداء النصح المطلوب للجميع، عَبَرَ فوق لوح الخشب وهو يلملم قفطانه، كان يخشى أن يلمس التراب طرف جلبابه، التراب الذي أصبح يغطّي أبي بالكامل الآن.

بعد الدفن بسبعة أيام أكمل أخي الكبير ما بدأه أبي، نقلة صاحب الجرار أصبحت عشرا، رُدِمت البِركة واختفى الناموس ولوح الخشب، صوت الصراصير وقفز الضفادع أصبح من مخلفات الماضي، تحولت الغرفة التي لم تكن مساحتها تتعدى نصف قيراط إلى دار كبيرة لا تقل عن قيراط ونصف، أخي محفوظ جعل من غرفتنا القديمة مكانا تبيت فيه البهائم، وبنى ست غرف متراصة كالعنابر.

في مطلع العام الدراسي كنت أُحمّل الجمل بالسباخ، ورأيت أصدقاء الأمس يلبسون الطرابيش، يزهون بها فيهتز زرّها مع كل خطوة، هُيِّئ لي بأنني سألمح الولد محروس عبادة، والولد سيد النجدي وهما ذاهبان إلى مدرسة الصنايع، وأعود فأتذكّر أبي الميِّت وعدّ الطوب وصور بنها وخالي حفني ومحمد أفندي موسى شاهين.

في ظل كل هذه الأحداث المتتابعة لم أنسَ البنت، بنت محمد أفندى موسى التي قدمتْ لي الشاي ذات ليلة قاسية، سكينة، إحساس جميل اجتاحني عندما عرفتُ اسمها.

***

برزت مكانة أمي المفاجئة عندما دبّ خلاف بيني وبين محفوظ، حتى محفوظ نفسه لم أكن أراه بشكل كامل قبل موت أبي، كنت حالما، أرى الدنيا مغلفةً بطبقة شاعرية، وكان محفوظ واقعيا لا يرى إلا ما يحقق طموحاته التي بلا حدود. لم أتوقع أن يحدث الخلاف بيننا بهذه السرعة، فقد كنا لا نتفق على طول الخط، هو شديد التأنق، لا يخرج إلا والعمامة محبوكة والجلابية مكوية والحذاء لامع، يسهر حتى الصباح في غُرزة حُشن، يأتي وش الفجر وفي سيالته زجاجة خمر صغيرة مرسوم عليها رأس عبد أسود، تقول له أمي: "حرام عليك". يقول لها كلمات غير واعية، كان تلفّظه بردود لا تناسب أمّنا يزداد يوما بعد يوم، حتى جاء صباح قالت له: "يا محفوظ حرام عليك. تدخل على إخوتك الصغار بخمرة يا ابني، بدل ما تحفّظهم قرآن"، فقال لها بلسانه الثقيل وهو يشيح بيده: "حُرمت عليكِ عيشتك. أنتِ الظاهر كبرتِ وخرفتِ". لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أرفع نعلي وأهوي على رأسه دون وعي: "يا ابن الكلب. تشتم أمي يا ابن الكلب". وتشدني أمي وتصفعني بكفّها صفعة رفيقة أقرب لدفعة: "أبوك كلب يا عديم التربية؟". ثم بصقت على كلينا وظلت تبكي حتى دخلت غرفتها وأغلقت بابها في وجهينا.

***

تمرّ الأيام سريعة، سنوات سبع، إخوتي الصغار يشتدّ عودهم وينحني عود أمي، وفي رقبتي سِربٌ من الأطفال، ومحفوظ ترك البيت بعد توسعته، تارة يقول إنه اشتغل في تجارة العطور، وتارة يقول إنه يعمل في مقاولات المعمار، ما كنت متأكدا منه تمام اليقين أن محفوظ يأتي

كل عدة أشـهر ليسـتولي على نصف محصول الأرض التي أقوم أنا وأمي بزراعتها، مرة يقول إنه سيشـتري لنا جاموسا وغنما، ومرة يقول سيدفعها ثمنـا لأرض جديـدة، لكنه في جميـع الأحوال كان يأخذ مـا لدينا ويقدم بدلا منه كلاما معسولا، ثم يُقبِّل يد أمي ويخرج.

ظلت الحال على تلك الوتيرة حتى جاء يوم مشـرق زارنا فيه الأسـتاذ محمـد موسـى شـاهين، كان الشـيبُ قـد خـطّ رأسـه بالطـول والعرض وبطأت خطوته بشـكل ملحوظ، وكانت ابنته بصحبته، البنت التي قدمت لي الشاي ذات مساء بائس، سكينة، كان اسمها مطمئنا وتصرفاتها راقية، وجهها يشعّ حُسنا، وصمتها يُنعش في أوصالي ظنونا لذيذة.

حـدَّثَ محمد أفندي أمي قائلا: "إبراهيم وصـل له جواب الجيش. وأنا استلمته من شـيخ البلد". ثم أخرج من صدريته ورقة مطوية فردها أمام أمي التي لم تكن تعرف من القراءة شيئا، كل ما أدركته أنني لابد سأترك الدار في وقت لاحق، تجلس أمي على الأرض بالقُرب من قدمي محمد أفندي وابنته سـكينة: "قـل لهم يسـيبوه لنا يا محمد أفنـدي. إبراهيم يربـي يتامى ويجري علـيّ أنـا وإخوتـه الصغار". ويبتسـم محمد أفنـدي: "الجيش ليـس فيه هذا الكلام. أنا كلمت له ضابط قريبي في مصر وحولت له السـلاح. كان مُشـاة، وأصبح حرس جمهوري. يعني سيكون قريبا من عبدالناصر يا أم محفوظ". وتفهم أمي أن ذلك شـيء حلو، فتقوم وتعمل شـايا للضيف وابنته الجميلة، تضع أمي الشاي ويجري إخوتي الصغار حولنا، وأنشغل مع نظرات سكينة، كانت تسـرق بصّة سـريعة ثـم تُطرق رموشـها برقة لم أر مثلهـا، دخلتُ إلى غرفـة الخزيـن، ومن بين أجولـة الطحين نظـرتُ، ومن نظرتـي حددتُ كل

شيء في دقائق معدودة، كانت نظرتها تشبه العقود الشفاهية، هيام بالمعنى الحرفي، تأكدتُ من أنها هي الوحيدة التي تصلح لي زوجة، كان صوت أمي بعيدا عن سمعي، واختفى صوت محمد أفندي، لم أعد أسمع شيئا أو أرى شيئا، هِمْتُ في نظرة سكينة، ملكوت بعيد لم أذهب إليه من قبل، أنسجة في بطني تهتزّ وترتعش، وانتعاشة مفاجئة تسري في ظهري وجنبيّ، ولذة خدرة تسيطر على دماغي وتُنمله، أيكون هذا ما يسمونه الحب؟

انتهزت فرصة غياب محفوظ عن الدار وفاتحتُ أمي، قالت: "يا نهار أبيض". قلتُ: "يعني موافقة؟". قالت: "أنت نور عيني يا إبراهيم. نهار الهنا. بس بشرط. تتجوز هنا في الدار يا حبيبي. أنا كبرت. ما أنت عارف. وإخوتك الصغار...". قلت: "مفهوم".

في اليوم التالي جذبتني أمي من ذراعي بعيدا عن إخوتي: "كلمت لك محمد أفندي". فترة صمت مرت، لم أعرف إن كانت تقصدها أم لا: "وماذا قال يا أمي؟". جلستْ على الكنبة وخلعت طرحتها لتبقى بإيشارب أسود قصير: "صبرك بالله. البنت لو تريدك الدنيا وما فيها يا عبيط. والبنت تريدك يا حبّة عيني".

كانت اللحظات التي تبتسم فيها الدنيا قليلة، قامت أمي الوقورة ومشت مشية مبتهجة، ترفع يديها إلى السماء، فتصيب بدنها رعشة فرِحة بطيئة تناسب سنها، وكأنها ترقص.

في الليلة التالية زارنا محمد أفندي وحده، ترك كيس برتقال على الكنبة واقترب من أمي كي لا أسمع، ولكنني أسمع: "والجيش يا أم محفوظ؟". وتحاول أمي جاهدة ألا يصل صوتها إليّ: "يدخلوا الأول".

ويخفض محمد أفندي صوته أكثر: "الجيش بعد أسبوع". وتُصرُّ أمي على أن تفوز بأي شيء: "طيب يكتبوا الأول". ويوافق محمد أفندي.

يذهب "صالح" أخي الأصغر ويجمع الجريد من نخل الطريق، ينفخ بالونات كثيرة ملونة وتأخذ أمي من رشيد صاحب الجرار ثلاثة كلوبات بالآجل، ويتم الفرح كما أفراح كل الشباب في قريتنا، هيصة وزغاريد للنساء ورقص التحطيب للرجال ومصّ القصب للأطفال، وصابر أبو خليل يحضر بفرقته، وتلعلع أصوات المزامير والنقارات، ويغنى أجمل مواويله "يا تاجر الصبر لا تغلّيه على الشاري، ده درهم الصبر يساوي ألف ديناري"، ثم يغني من أغاني البندر "يا نجف بنور يا سيد العرسان".

تقترب مني أمي وتمدّ يدها بوردة حمراء مقطوفة منذ دقائق: "خذ يا حبيبي. ربنا يسعدك بها ويسعد أيامك". آخذ منها الوردة وأشمها، ترتبط الرائحة بودّ من قدمتها، وأرى في الحياة معانيَ جديدة تغيّر الأفكار في عقلي. لم أجد مكانا أحتفظ فيه بالوردة إلا المصحف.

لم تقو أمي على إقناع محمد أفندي بالدُخلة قبل الجيش، فسلمتُ أمري لمن بيده الأمر وسافرت بعد أسبوع، في ميعادي تماما، كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مصر، التي يسميها بعض الناس القاهرة.

بالقطار وصلت إلى محطة مصر، ومنها إلى منطقة التجنيد في صحراء مصر الجديدة، كان وسع الشوارع غريبا والحياة براحا أكثر مما يجب، كثبان رمال ممتدة ومترامية لا شيء بعدها إلا سماء مُنطبقة فوق قوس الأرض البعيد، كانت تُشبه الساحة التي تدربت فيها على كشف اللياقة

البدنية في مدرسة الصنايع، هُيّئ لي أنني سأقابل في أحد الأركان الولد محروس عبادة أو الولد سيد النجدي.

خمس ساعات قضيتها في منطقة التجنيد، بعد أن لبست الميري تغيرت نظرتي للحياة بتغير ملابسي، تخلّق أمامي عدو لا أعرفه ويجب أن أحاربه. قضيت يوما بنصف ليلة وأنا على هذه الحال، أرتدي ملابس العساكر، أحمل بقجة كبيرة في حجم برميل اسمها "المِخلة"، وأنتظر شخصا اسمه "المندوب" ويأتي المندوب قرب العشاء، يفرد ورقة وينادي على أسماء كثيرة كنت من بينهم، أوقفنا في طابور محدود ثم مشى أمامنا كالراعي، كانت سيارة نقل الجنود التابعة لوزارة الحربية في انتظارنا بالخارج، انتقلنا فيها إلى مركز التدريب بألماظة، قضيت هناك خمسة وأربعين يوما يصعب نسيانها، وبعد أن غاب عني شكل الحياة بالخارج أعطونا إجازة أربعة أيام، لم أكن أفكر في الإجازة إلا من أجل سكينة، هذا الملاك الذي دخل حياتي في الوقت المناسب.

بعد انتهاء الإجازة تم توزيعنا على القطاعات، وجاء حظي في قصر القبة، كنت أرى جمال عبد الناصر كما أرى خالي الشيخ حفني ومحمد أفندي موسى شاهين، يمرّ وبيني وبينه أقل من مترين، لم أستطع تأمله ولا مرة واحدة بسبب الرهبة، لم تصدق أمي أو سكينة أنه صافحني ذات مرة، ولم يصدق محمد أفندي أنني أعرف أسماء أبنائه وبناته وألاعبهم في جنينة القصر الكبير.

سارت الحياة على تلك الوتيرة طوال السنوات الثلاث، أتقاضى راتبًا مئة وتسعين قرشا، أتمها جنيهين من وقوف ورديات لزملائي القاهريين،

أرسل الجنيهين لأمي، وما يزيد أشتري به هدية لسكينة قبل الإجازة بيوم.

قبل انتهاء فترة التجنيد بشهرين وزعوا علينا استمارات للتعاقد على وحدات سكنية خصصها عبد الناصر لضباط وأفراد الجيش، منطقة صحراوية نائية اسمها الألف مسكن، مبني بها ألف فيلا، ولكن ثمنها كان باهظًا، خمسمائة جنيه، تُدفع خمسون مقدمة وكل شهر خمسة جنيهات، طبعا لم أملأ الاستمارة، أعدتها لمن أعطاها لي، وفكرت في هدية لسكينة لا يزيد ثمنها على عشرين قرشا، أو ثلاثين على أقصى تقدير.

استلمت شهادة تأدية الخدمة العسكرية مع حسن السير والسلوك، كانت موقعة من اللواء الليثي ناصف بتاريخ 1-1-1965، دمجت أمي الاحتفالين بتكلفة واحدة، فرحة خروجي من الجيش ودُخلتي على سكينة. اتفق أخي صالح مع رشيد صاحب الجرار، فقطعا من الطريق شجرة، سلماها للنجار الذي شقها بالمكنة فصارت سريرا وبوريه، كنست أمي الغرفة وعطرتها بالمسك وماء الورد، ثم نصبت السرير وفرشته بالتوللي والناموسية حتى يليق بعريس وعروس.

وبدأت الحياة تكشف عن وجه آخر أقلّ قُبحًا.

***

خصّصت أمي الغرفة الكبرى في الدار لي، والغرف الخمس الأخرى وُزِعت بين الخزين وإخوتي الذين لم يضحوا أطفالًا بعد، وكانت لأمي غرفة مستقلة قريبة من الحمّام وباب الخروج، وبدا بيتنا لمن لا يعرفه

يخطو نحو سعادة جديدة، لكن الصفو دائما ينتظر من يُعكّره، ظهر محفوظ من جديد بعد أن أوشكتُ على نسيانه، لم تبدُ عليه أي نعمة من تلك التي كان يمني نفسه ويمنّينا بها، بل تجلّى أمامي في هيئته أقرب إلى المتسولين والدراويش، عاد يطلب الأرض بالكامل، ثمانية قراريط: "أنا أزرعها مع أمك وإخوتك يا محفوظ". جلس على مصطبة أمام الدار ووضع ساقا على ساق: "سأزرعها أنا". جلستُ بجواره: "وإخوتك؟". قال: "سأشتري منهم نصيبهم ويفتحون هم بالفلوس تجارة". كان كلامه غريبًا، امتلأت نفسي فجأة بحزن، سكنت روحي كآبة ونبتت بداخلي هموم لا حدّ لها، كان حديثنا بعيدا عن مسامع أمي، حاولت أن أستفسر منه عما يدور في رأسه فكانت ردوده حادة لا تقبل نقاشا: "طيب نتكلم غدا يا محفوظ". أنزل ساقه وقال: "الآن يا إبراهيم".

كان أخي الذي يصغرني قد بلغ الثامنة عشرة، والذى يليه بلغ السادسة عشرة، وثلاثة أطفال دون ذلك. قلت لمحفوظ: "إخوتك لا يزالون صغارًا، لا يبيعون ولا يشترون، وأمك لو فتحنا أمامها سيرة تقسيم الأرض ستموت". فردّ بنبرة واثقة: "أمك اترك شأنها لي، وإخوتك الأطفال سأحفظ لهم حقهم، أما صالح ومنصور فمن حقهما البيع والشراء بعد أن يستخرجا بطاقات شخصية". كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عمّا يُسمى بطاقة شخصية، فشرح لي محفوظ: "في مصر الآن كل شخص له بطاقة شخصية، دفتر صغير مُدبّس به صورة ومعلومات كثيرة عن صاحبه. كيف عشت في مصر يا إبراهيم ثلاث سنوات ولا تعرف البطاقات الشخصية؟".

كان الواضح من كلام محفوظ أنه لن يهدأ حتى أحقق له ما يريد، ذهبنا في اليوم التالي إلى بنها، صوّرنا صالح ومنصور واستخرجنا لهما البطاقات الشخصية، جلسنا بعد أسبوعين على المصطبة نفسها، جمع محفوظ إخوته كلهم حوله وقال: اليوم سأحفظ لكم حقكم في الأرض، لابد أن تساعدوني يا إخوتي". وقام ثم أحضر قِدرا صغيرا به حليب لا يزال دافئا، صبّ منه أكوابا بعدد إخوته: "خُذ يا منصور، خُذ يا صالح، ثم وزّع على باقي إخوتك"، كل طفل أخذ كوبا كبيرا من الحليب: "من أجل أن يكون "عيش وملح"، فلا يخون اللقمة إلا ابن الحرام يا أبناء أبي وأمي".

وأثناء تناول إخوتنا نصيبهم من حليب بقرة أبي أخرج محفوظ من قبّة جلبابه ورقة، فردها أمامه فلمحتها مُقسّمة إلى خانات، كل خانة فيها اسم من أسماء إخوتي الخمسة، كان الحليب لا يزال يرسم دوائر بيضاء على أفواه الأطفال، ومحفوظ يبلل قلم الكوبيا من فمه، يعطيه لهم واحدا واحدا: "اكتب اسمك ورقم البطاقة. اكتب اسمك ورقم البطاقة. اكتب اسمك فقط. وأنت أيضا. وأنتِ، اكتبي اسمك فقط". انتهى الأطفال من كتابة أسمائهم في ورقة محفوظ، فطواها وأعادها إلى سيرتها الأولى، ثم اتجه إليّ وقال: "أما أنت فلنا جلسة بعد ذلك وحدنا".

خرجت أمي ورأت قِدر اللبن فارغا، اقتربت منا وقالت: "يا ولاد خذوا العيش وفِتوا في الحليب. الفتّة بَركة يا ولاد بطني".

بعد أن نال محفوظ ما أراد لم يعد لأمي غير غرفتها في الدار، رضيتُ بالمقسوم، أنام أنا وسكينة بعد أن يهدّنا تعب العمل في الأرض من زرع

وحصاد وتخزين وصرف الكيماوي من الجمعية الزراعية، ظلت الحال على تلك الوتيرة حتى ظهر أحد الأيام، جاءتنا امرأة قالت إن اسمها "ماتيلدا" وادّعت أن محفوظ باع لها القراريط الثمانية، التي نزرعها أنا وسكينة وإخوتي.

كانت سكينة تدرّب إخوتي على تختين شجرة جميز عند رأس الغيط، وقفت بجواري أمام ماتيلدا وقالت لها: "أول مرة أشوفك يا مدام". وضعت المدام ذراعها على كتف سكينة: "وأنا أيضا. نحن نبيع ونشتري دون أن نعرف من نبيع له ومن نشتري منه. هذه هي تجارتنا التي توارثناها"، كانت مُهذبة وتتحدث بأسلوب على درجة كبيرة من الإقناع، اقتربت مني سكينة: "هيا بنا يا إبراهيم. هذه المرأة على حق". تعجبتُ من سرعة تفسيرها: "لماذا تقولين ذلك يا سكينة؟". ابتعدنا قليلا عن المرأة الغريبة: "لأن هدوءها هو هدوء صاحب الحق يا إبراهيم". انصرفت المرأة وهي تبتسم وتلوّح لنا بيدها كأننا صرنا أصدقاء.

في مساء اليوم نفسه ترددتُ في فتح الموضوع مع أمي، كانت الأمراض قد ركبتها وخفّ وزنها كثيرا، غارت عيناها في محجريهما وانحنى عودها حتى أصبح كالقوس، لم تكن تعرف شيئا عن الورقة التي اشترى بها محفوظ الأرض، ولكن يبدو أن الوقت قد حان كي أقول لها كل شيء. وقبل أن أرتب الكلام في رأسي سمعت دقتين على باب الدار، فتحت فوجدت حماي يلهث وينظر للأرض، أخرج من جيبه ورقة صغيرة وقال: "البلد على كفّ عفريت يا إبراهيم. تلقيتُ خطاب استدعاء للجيش باسمك من شيخ البلد". لم أفكر في تلك اللحظة

بالجيش والعودة للعسكرية، فربما كانت أرحم مما أنا فيه الآن، ولكني نظرتُ داخل الدار، لأمي، لا يمكن أن أتركها في مثل هذه الظروف أبدًا، محفوظ وإخوتي الصغار، مطرقة وسندان، دخل محمد أفندي موسى شاهين وأمسك بالورقة بين أصابعه وهو في طريقه للجلوس: "لازم أم محفوظ تعرف". وتردّ أمي: "أعرف إيه يا محمد أفندي؟". يقترب من أمي: "تعرفي إن إبراهيم راجع الجيش من جديد". وتضرب سكينة صدرها: "نخلص من ورطة نقع في مصيبة". وتردّ أمي: الجيش خلص يا محمد أفندي، سلامة عقلك يا أخويا".

ينصرف محمد أفندي، وبعد يومين أترك قريتي، لم أعد إلى القصر الجمهوري في منشية البكري، فقد جاءتنا تعليمات صارمة للذهاب إلى قاعدة أنشاص العسكرية.

***

في ظهر يوم قائظ من أيام شهر يونيو 1967 توزعنا في عُجالة على لواءات لا نعرفها، لاحظتُ جلبة كبيرة تحدث ولا يعرف الجنود عن سببها شيئا، أسئلة كثيرة تدور في أذهاننا ولا تلفظها ألسنتنا، بعض الجنود جاءوا بالجلابيب، لم يسعفهم الوقت ليلبسوا الميري.

"أنا الرائد سليم العبادي قائد الكتيبة. بلدنا يمرّ بمرحلة صعبة يا شباب. يحتاج منا الوقوف كالرجال يدا واحدة". قال الضابط ثم اقترب من صف الجنود وبدأ كل منا ينطق اسمه بسرعة، ويبدو أن الرائد سليم لم يكن منتبها لأسماء جنود كتيبته بقدر ما كان سارحا في أمر أكبر.

ركبتُ عربة نقل الجنود. دار بيني وبين زملائي حديث بالعيون أولا، ثم بالإشارات، ثم تطرقنا للكلام بسبب طول المشوار. لأكثر من خمس ساعات ونحن نهتز داخل صندوق السيارة النقل حتى تيبّست ظهورنا وحجظت أعيننا، العرق لزج ورائحة عادم الموتور تحاصر أنفاسنا. بعد عدة إشارات أُرسِلَت إلى لاسلكي الضابط الجالس بجوار السائق انحرفت السيارة بنا يمينا، تجاوزنا بعض المدقات والدُشَم وأجولة الرمال، وفجأة أحاطتنا أدخنة وألسنة لهب من جميع الاتجاهات، ثم سمعنا أصواتًا مدوية لانفجارات تقترب ونشعر بصهدها. في تلك الدقائق القليلة اختلطت في رأسي الظنون، لا أعرف إن كنا في موقف عسكري قوي أم في مأزق حقيقي، لا أعرف شيئا ولا أجرؤ على السؤال، فقط ننظر إلى بعضنا بعضا وفي يد كل عسكري بندقيته روسية الصنع 7/ 62×39 والرائد سليم العبادي في الكابينة فقط يحمل بندقيته الكلاشينكوف، الروسية أيضا، وبرغم أصوات الفرقعات من حولنا فقد خيَّم علينا صمت مطبق وتوهان.

دارت في رأسي خلافاتي مع محفوظ، بدت تفاصيل تافهة لمجرد تذكرها، أحاطت بنا مخلفات محترقة لآليات عسكرية، لا يزال الدخان يتصاعد منها، عربات عسكرية لنقل الجنود انتشرت حمولتها وتوزعت على مرمى البصر، وجنود كالأشباح يجرون في كل الاتجاهات، تتوه ملابسهم المموهة بين سهول الرمال، ودبابات وقعت جنازيرها وانحنت مدافعها، رأينا عتادا عسكريا مُبعثرا تلمحه العين بسهولة، وفجأة، توقفت العربة التي تقلنا، جرى الرائد سليم العبادي وراء ظنونه العسكرية وهو يحمل الكلاشينكوف، وجرى السائق بعد أن سحب بندقيته من خلف كرسيه.

انتشرنا في جميع الاتجاهات، نتعثر في المخلفات والحطام، عربات جيب بلا إطارات ولا جنود، عربات نقل انكفأت على أبوازها، صرخات مذعورة تعود بأصحابها إلى مرحلة ما قبل اختراع الكلام، انفرط عقد كتيبتنا في ثوانٍ، لم أعد أرى أحدا ممن كانوا يجلسون على الدكة بجواري طوال الطريق.

في تلك اللحظات المشحونة تبدّد كل ما كنت أحتفظ به من ذاكرتي، أبي الذي مات وهو يعدّ قوالب الطوب، وأمي التي انحنى عودها كالقوس، وأخي محفوظ الذي اشترى الأرض بوعاء لبن، وحماي الأستاذ محمد موسى شاهين، الولد محروس عبادة والولد سيد النجدي، حتى سكينة لم أعد أتذكرها في تلك اللحظات الصعبة من حياتي.

صنع المشهد في نفسي مرارة مؤكدة، حتى قبل أن يصلنا نبأ هزيمتنا الثقيلة، لم يطلق أحدنا رصاصة على أي نوع من الأعداء، كنا نطلق الأعيرة في الهواء بسبب الخوف. شردتُ في الصحراء والدخان الأسود، جيشنا الثالث تفتّت، الجنود من حولي يمرقون كشُهُب صغيرة داخل سحابة كبيرة، ومدنيون بجلابيب بيضاء ملقون قتلى على الطُرق، صنادل مَلَكي وبيادات ميري تُرقّط اللون الأصفر بطول الطريق.

اختبأتُ خلف دُشمة قديمة تُفضي إلى خندق صغير، وبعد مرور وقت لم أتمكن من حسابه في تلك الظروف، ظهر من بعيد شبح أسود للرائد سليم العبادي، كأنه ظِلّ بلا أبعاد، يُقبِلُ بخطى عسكرية واثقة، غالب الإرهاق وهو يقول لي: "أُشهدكَ على عدم اعترافي بالصوت الذي جاءني في اللاسلكي يطلب منا الانسحاب". نطق الرائد سليم

بهذه الكلمات ثم بدأ يتهاوى، اقترب من الأرض حتى سقط على وجهه، ورأيتُ ظهره أحمر مختلطًا بالعرق والرمال. انطلقت دانة مدفع قريبة جدا من رأسي، فرقعت أذني وفقدت الشعور بأي شيء، ثم طالتني رعشة طويلة ظننتُ بعدها أنني مت، عندما أفقت لم أجد الخوذة فوق رأسي.

***

لا أدري كم ساعة لبثتُ وأنا بين الصحو والممات، كم يومًا، كم عُمرًا بعدد السنين والحساب؟ بعد مسيرة يوم ونصف وصلتُ شبه ميت إلى قريتنا.

كان المساء قد حلّ، مساء القرية ومسائي، كل خطوة أخطوها أشعر كأن قدمي ترفع معها الكرة الأرضية، وكل نظرة للطريق أمامي تُحمّل جفني جبل الطور، ذاب قعر البيادة ورغم ذلك لم أحس بالحصى والتراب. الظلام يغطي كل ما أرى، البيوت والشوارع الضيقة، لا أدري كيف وصلت إلى بيتنا، لمحتُ خيمة سوداء صغيرة متكومة فوق مصطبة البيت، لا يُظهر حدودها إلا ضوءُ قمر ضعيف، اقتربتُ أكثر، فأكثر: "أمي" قلتُ فدبّت الروح في الخيمة، نفضتْ عنها قماشها الأسود، وتفتحتْ وردتي العجوز، اضطربتْ عينها ولم تقو على الكلام، ظلّت تردّد بلا وعي كامل: "إبراهيم. أنت حي. إبراهيم. أنت صاحي؟". عندما انكشف وجهها رأيت ملامحها وقد شاختْ عشرين عاما أو يزيد، لم تستطع قدماي حملي لأكثر من ذلك، سقطتُ فوق المصطبة، وقبل أن أفقد وعيي بالكامل أحسستُ بجسد خفيف وهش يقع فوقي.

في الصباح حكى لي أخي الأصغر صالح كلّ ما حدث أثناء غيابي، فقدتْ أمي بصرها تقريبا بسبب ذهابي إلى الحرب، عسكري جارٌ لنا لا أعرفه أخبرها بأنباء مؤكدة من ساحة القتال كما دلّه خياله وهيأ له، قال لها: "رأيتُ إبراهيم نائما على الرمال بلا أطراف، لا يدين ولا قدمين، يصرخ "أخرجوني من هنا". والكل منشغل بروحه ومهموم بأن يهرب بجلده، وقال الجندي أيضا: "مررتُ عليه ولم أتمكّن من مساعدته، ربنا يتولاه". وسألت صالح: "هل قال هذا الكلام لأمك؟". فهز صالح رأسه بالإيجاب، كنتُ أستمع لما يقوله كشخص يتابع شريطا خياليا تمرّ من ثقوبه الأحداث.

جلست سكينة بجواري وأمي نائمة ومغطاة بحِرام خفيف، تأخذ حيزا يكفي طفلا، ويكمل صالح: "أخوك محفوظ أغضبها مرتين أثناء غيابك". فقلت لصالح: "سنتحدث بعد ذلك في هذه الأمور. فمحفوظ أخذ الأرض وترك لكم هذه الدار الكبيرة يا صالح". صمت صالح لفترة ونظرت سكينة للأرض ثم قالت: "محفوظ أخذ الدار أيضا".

حصى صغير يتكون بداخلي ويصير جبلا، يرفض عقلي التفكير في أي شيء له علاقة بالمنازعات، فقدتُ القدرة على التمييز بين معاني الكلام بشكل مؤقت، طال تفكيري قبل ردي: "ربنا يسهّل له". أغضب ردي صالح فقام وتركني أتأمل حُزن سكينة وملامح أمي النائمة.

جذبتني سكينة من ذراعي فقمتُ وتبعتُها إلى مدخل الدار، أخرجت من عبّها ورقة مطوية، امتدت يدها في نفس توقيت مرور الكلام على لسانها: "وأنت في الجيش أرسلتُ خِطابا باسمك للعمل في مصر. وجاءنا الرد بالأمس".

فردتُ الورقة وقرأت: "السيد: إبراهيم سيد البحيري مصطفى، تحية طيبة وبعد. نُعلمكم بموافقتنا المبدئية على العمل ضمن فريق الشرطة المستجدّ بوزارة الداخلية المصرية بلاظوغلي. مبنى بيت البارودي، الإدارة العامة لشئون الأفراد. بوظيفة بلوكامين شرطة. يُرجى حضوركم إلى مقر العمل في موعد أقصاه سبعة أيام من تاريخه.. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام".

انتهت الكلمات الواردة بالخطاب. وبدأت الخواطر الواردة في رأسي تدقّ أبوابا جديدة للأمل.

***

أذهب إلى مقر الوزارة وفي يدي الورقة، كان المكان نظيفًا جدًّا، يُضيء ويشفّ، استقبلني هناك موظف مُسنّ سألني عن بياناتي الشخصية، وعندما استفسر عن محلّ السكن عرف أنني لستُ من سكان القاهرة، فتوقف القلم بين أصابعه: "كيف ستأتي إلى الشغل كلّ صباح؟". وكان سؤاله بديهيا، ليس في حسباني نهائيا أن أصبح من سكان القاهرة، ما فهمته من الرجل أن العمل يبدأ في السابعة صباحا، ولو أنني وافقت على العمل وأنا أقيم في قريتي فلابد سأخرج من الدار قبل الفجر وأعود إليها بعد العشاء، وهذا أمر مستحيل، غربلتُ رأسي باحثًا عن حل معقول، وقفز في رأسي قريبٌ لي يعيش في القاهرة منذ ثلاث سنوات، اسمه خليل أبو بُق، ولم أكذب خبرًا لأن الوظيفة لن تنتظر.

في مساء اليوم نفسه سألت الأستاذ محمد موسى شاهين عن عنوان خليل، كتبته في ورقة وعدت إلى القاهرة مرة أخرى في الصباح التالي،

لكن في هذه المرة لم أقصد الوزارة، ولكني قصدت مباشرة بيت خليل أبو بُق، أخرجت الورقة المكتوب بها العنوان، أرض أم ليلة. عزبة العقاد. المطرية.

لم يتذكرني الرجل، بل لم يعرفني أصلًا، ولا أنا أيضًا كنت قد رأيته من قبل، في مثل هذه الظروف كنت أبحث عن كلمات طيبة تناسب حاجتي، الرجل من حوله تجري عيال كثيرة جدا مقارنة ببيته الصغير: "عيالي وأحفادي". وأقول: "ربنا يخلي". وأعود فأقول: "أنا إبراهيم من عائلة البحيري". ويقول الرجل: "بس يا ولاد الشياطين. يا أهلًا وسهلا". وأدخل إلى الموضوع: "عاوز سكن رخيص". ويبتسم الرجل: "رخيص. في مصر؟ أنت تحلم يا إبراهيم". وأصمت لفترة ثم أقول: "لابد من سكن قريب. فشُغلي أصبح هنا". ويتأملني الرجل كأنه لم يكن يراني قبل ذلك: "هنا! أين؟". أفرك أصابعي: "في وزارة الداخلية. بلوكامين شرطة". يعدل خليل أبو بُق من وضعية ياقة جلابيته المقلمة: "في الوزارة حتة واحدة؟ ماشي. لكن هل تعرف يا إبراهيم كم هو إيجار الغرفة بمنافعها التي تجلس فيها الآن؟". لم أرد، فقال بكلمات واثقة: "مئتان وخمسون قرشًا كل هلّة شهر. كم سيعطونك مرتبا في وظيفتك؟". وأرد ببراءة: "تسعة جنيهات". يهش بعض العيال من حوله: "يعني أكثر من رُبع راتبك سيذهب للإيجار وحده، ولو أردت أن تسكن في شقة غرفتين وصالة ستدفع نصف ما تأخذ".

فكرتُ قليلًا، لم تكن أمامي حلول أخرى، لابد أن أسكن قريبا من عملي الجديد، وعدتُ أفكر في أمي وسكينة وإخوتي الصغار، كانت

المشكلات تتعقد في رأسي كخيوط العنكبوت، لا يمكنني فضّ اشتباكها مهما بذلتُ من تفكير وتركيز.

***

"مضيت على الورق يا أمي".

"أي ورق يا إبراهيم؟".

"تعيين في وزارة الداخلية".

"حاجة حلوة يعني؟".

وقبل أن أرد يدخل صالح؛ أخي الأصغر، يقترب من أذني:

"بالأمس جاء الحكيم لأمك".

انتقلتُ وجلست بجوارها، قبّلتُ يدها:

"ألف سلامة. ما لكِ؟".

وقفتْ بالكاد على قدميها، لفت مرتين حول سريرها:

"ما لي؟ أنا قوية يا ولد، أحسن منكم كلكم، صحتي بُمب".

قالت ثم ضربت صدرها الضعيف بقبضة واهنة ترتعش، جلست مرة أخرى وأشارت إلى قدميها:

"لولا العَجل بَرَك يا إبراهيم".

قبلت يدها وحضنتها:

"لازم أمشي. سأستلم الشُغل في الصباح، و...".

تنظر إليّ نظرة طويلة متأملة:

"خير يا إبراهيم؟".

"سآخذ سكينة لتعيش معي في مصر".

تبتسم ابتسامة ودودة مترددة:

"وما له يا حبيبي. لازم تكون جنبك. لكن لا تنس أمك يا إبراهيم. مصر واسعة. أوسع من الخيال. وتلهي الناس يا حبيبي".

صافحتها سريعا، خرجتُ من غرفتها دون أن أنظر خلفي.

بخطى سريعة قصدتُ غرفتي.

سكينة مضطجعة على السرير وسارحة، وورقة التعيين في يدي، لوّحت بها أمام وجهها، كانت تمسك وردة وتحك بها عنقها، لم تلتفت للجواب الذي أحمله كسلاح، ابتلّت الورقة من عرق يدي:

"لازم نجهز علشان السفر بعد يومين".

تجلس وتقرفص على السرير، تُلوّح بالوردة الصغيرة أمام وجهها، تقول:

"يومين يا إبراهيم؟".

وأرد عليها:

"يومين يا سكينة".

تترك السـرير وتتجول ببطء في الغرفة الصغيـرة، تُعلّق الوردة كالتاج فوق زجاجة اللمبة المطفأة، تضع يديها مجتمعتين على بطنها:

"كنت عند الحكيم".

أديـم النظر إلـى موضع يديها، ثـم أتأمل ملامحهـا ولا أتكلم. تربت على بطنها برفق، تبتسم:

"سنذهب إلى مصر ونحن ثلاثة. هنا. إبراهيم الصغير".

"حامل يا سكينة؟".

تهز رأسـها ويلمع في عينها سائل الفرحة، آخذ يدها وأُكمل المشوار القصير نحو السرير، نجلس وتهمس في أذني:

"لو ولد سيكون مصطفى بإذن الله".

"مصطفى؟".

"على اسم النبي عليه الصلاة والسلام".

2

الفَلَق

قرأت أوراق أبي ثلاث مرات. في كل مرة تتوقف السيرة عندما يُذكر اسمي، تتجمد الدنيا التي كانت مليئة بالأحداث، تمنيتُ طوال فترة القراءة أن أعيش بنفسي هذه الحياة.

مزيد من الضآلة أشعر بها أمام الماضي، أراه أكبر مني، دائما هو أعمق وأهم، أحداثه هي الشيء الوحيد المكتمل، أما غير ذلك فعلاقات حُلميَّة، افتراضية أو ظنيَّة، لا أهتم كثيرا بمحاولة التثبت من وجودها.

تنظر ابتسام إلى كوب الشاي البارد، أقول لها:

"لم يكتب أبي حرفا له علاقة بي. كنتُ أود معرفة شيء عن انطباعه عندما أنجب الولد في تلك الظروف".

تبتسم، تقول:

"رحلة الإنسان في الكفاح تبدأ وتنتهي قبل أن يُنجب".

أمسك يدها، أجذبها، تقع في حِجري:

"سنظل إذن في رحلة كفاح مستمرة".

تنهض وتبتعد قليلا، أضعُ الأوراق في الدوسيه الأصفر، وأضعُ الدوسيه في حقيبته السوداء كما كان، ترفع كوب الشاي وتُحضر بدلا منه صينية عليها أعواد بقسماط وبراد خزف مليء بالشاي، بجواره أوراق نعناع ونصف ليمونة، تبتسم، وتقول:

"هل كنت تقرأ في أوراق أبيك أم في روايتك الجديدة؟"

أفكر أكثر من اللازم قبل أن أؤكد:

"كنت أقرأ في أوراق أبي"

أنظرُ للأوراق بجواري لأتأكد من وجودها بالفعل، ألمسها وأفرّ أوراقها ببطء.

تقول بابتسام:

"لن أنام الآن، سأفرد ظهري فقط. إن احتجت شيئا ناد عليّ".

دائما تقول إنها "ستفرد ظهرها" لكنها تروح في نوم عميق بعد أقل من خمس دقائق. أحملُ الصينية بما عليها وأضعها فوق منضدة صغيرة في البلكون، أفتحُ الستارة المرسوم عليها أطفال يلهون في حديقة. ظلال بنفسجية ولون ذهبي خفيف، الغروب، يوم آخر يأذن بالانصراف. المطر يجرف الأفكار، يعيدها إلى المنابت التي تتشكل فيها الكلمات.

كنت لا أفكر إلا في سيرة أبي التي قرأتها منذ قليل، راح الرجل الذي يحتفظ في رأسه بملامح جيل كامل لا أعرفه، حكى لي كثيرا عن طبيعة لم تعد موجودة، حياته التي عاشها وقريته التي جرت على أرضها الأحداث، اختفى واختفتْ الطبيعة التي نشأ فيها، كل ما يموج في الرأس يذهب إلى نهر كبير بلا عودة، أشياء لم يعد لها وجود إلا في خيال شخص ميت.

اسمي:

مصطفى إبراهيم سيد البحيري.

لماذا أجلتُ بطاقة تعريفي حتى انتهيتُ من قراءة أوراق أبي؟ أنا نفسي لا أعرف سببًا واضحًا لذلك، فوفقا للمقاييس الإنسانية يمكن لشخص أن يقدم الأحداث أو يؤخرها دون سبب معلوم.

مكاني:

بكل تأكيد أجلس في البلكون، أتأمل خيوط المطر المائلة أمام أعمدة الإضاءة، يغتسل الشارع من غباره النهاري، لا أستطيع منع نفسي من التفكير في علاقات قديمة مع الناس والأشياء، ممارسة التذكر لا تعني إلا الصور، وأي تذكر بالكلمات يبدو مفتعلا.

أراهم الآن، بعيدا يقفون، يلوحون، ينتظرون أن آخذ بأيديهم من هناك، وأُحضرهم إلى هنا، أسمع أصواتهم، أمي سكينة التي ماتت منذ زمن، وأبي الذي لحق بها بعد عُمر طويل، أقارب وأصدقاء آخرون ذهبوا أيضا ولم يعد بإمكاني استعادتهم، تركوني متعلقا ببعض مشاعر متخيلة عنهم، ذكريات أخشى فقدها واحدة تلو الأخرى، هل تعرف الذكريات أنني أخشى فقدها؟

في وقت الضعف أستعيد صورة أمي، الموتى لا يكبرون، دائما أراها تتأملني من بعيد ولا تقترب مني، كأنها تفكّر في حلولٍ لمشكلاتي، تحاول مساعدتي في غيابها مثلما فعلت أثناء وجودها معي، كانت تحفظ حياتنا من أن تصبح بقايا.

أغيـب عـن الزمان والمـكان ولا أعرف أيـن أنا، أشـعر أنني خفيف، يمكنني التحليق عند السـحب التي تحمل المطر، أسأل نفسي هل فقدت بالفعل شـيئا، أم أنها مجرد احتمـالات؟ . ما دمتُ أتذكر ما أريده فالأمور ليست سيئة.

أعـدت إلـى المكتبـة كتابا طبيـا كنت أقـرأ فيه بالأمـس، رتبت بعض أوراق مبعثرة من حولي حتى كبس عليّ النوم.

قـرأت ذات مـرة أن السـرحان يجلب النعـاس، سـرحت طويلا ولم أنعـس، وعـدت لطرح الأسـئلة من جديـد، ما الذي يجبر شـخصا عاقلا مثلـي علـى أن يذهـب طواعية لينـام على سـرير غريب في مـكان بارد؟ ويسـمح لطبيب بتعديل شـيء ما في رأسـه، كنت أخشى الذهاب لطبيب الأسـنان كي لا يفتح فمي، سيفتحون جمجمتي طالما نجحوا في إغلاق عيني.

أنجو من المشـكلات فقط في الخيال، أرى سـريري وهم يدفعون به خـارج غرفة باذخـة الإضاءة، أتمم إجراء العملية في خيالي، أرى نفسـي عندما لا يمكنني رؤية أحد، يحيط الدم بالسـرير، ورأسي منتفخ ومربوط بضمـاد كبير متشـبع بالبرودة، يشـع طاقة تُسـهّل النسـيان، وبقـع حمراء متجلطة حول عنقي، وفي أذني صوت سرينة لا ينقطع.

مشابك الغسيل على الأحبال يؤرجحها الهواء، تنقلب مثل قرد لعبة، ألمـح فردة جـورب وحيدة في ركن البلكون، منكمشـة، تُعبّر عن غضبها بطريقتهـا بعـد أن ضيّعت الريح رفيقتها، حزمة ثـوم معلقة ومبلولة أيضا، لو كانت لها ذاكرة ربما اعتقدت أنها صحبة ورد.

اغتسل الشارع بما فيه الكفاية، في الإضاءة الشاحبة ألمح رجلا يقفز هو يغطي رأسه بكيس شفاف، يتجنب الحُفر الصغيرة المليئة بالماء، يختبئ تحت لافتة معدنية ويمد كفّه ليقيس شدة المطر.

يتوقف صوت السرينة في رأسي.

ذات زمن لا أذكر تفاصيله قالت ابتسام:

"لقد قدمت أوراق فريدة وألحقتها بمدرسة القديس يوسف".

دائما تريد أن تفاجئني، كانت المدرسة مدرستها منذ ثلاثين عاما، لا أدري من الذي سمى ابنتنا فريدة، لا أعرف إن كان هذا هو اسمها في الحقيقة أم أن لها اسما آخر، بل أنا غير متأكد أن لدينا ابنة أصلا.

أمنيات قديمة مطمورة تقفز دائما مكان الحقائق.

تمر الأفكار في رأسي كأنها حدثت بالفعل.

سأذهب إلى المستشفى غدا، يحضر أمامي تاريخي القديم مع البلاطي البيضاء وروائح الأدوية، لم يكن اسم "مستشفى" جديدا عليّ، في طفولتي، أتذكر، اجتاحتني حُمّى، ألقوا بي في حوض ماء كبير، ربما كان بانيو الجيران، خطورة حالتي ظهرت في أعينهم، أما أنا فكنت سعيدا بالماء البارد في عز الصيف، أشعر بجريان منعش في دمي. لم تنفع معي خطة البانيو، فأذهب بصحبة أمي إلى مستشفى الحميات، في الحادية عشرة كنت أنام بالقرب من شخص كبير يحتل سريرا مجاورا واسمه الشحات، أراهنه على الجري في جنينة المستشفى، ودائما أكسب الرهان.

قلتُ له ذات صباح:

"سأتركك تسبقني يا شحات مِن نِفسك".

كانت المرة الأولى التي يسبقني فيها، والأخيرة أيضا.

في المستشفى؛ أغلب المرضى كانوا يحتفظون براديو ترانزستور في حجم الكف، يضعونه بالقرب من آذانهم قبل النوم فينامون، عندما يستيقظون لا يجدون الترانزستور أحيانا. كان الشحات لديه واحد، يربطه في السرير بجنزير، ذات صباح ناديت على الشحات فلم يرد، شالوه وأخذوه إلى غرفة الغُسل، لم أره بعد ذلك أبدا، ساعات قليلة مرت وسريره خالٍ، لم يبق منه إلا الجنزير مربوطا بلا ترانزستور، في المساء؛ عندما وزعوا علينا قطع الجبن النستو مع الرغيف، كان الشحات قد تلاشى تماما من رأسي، قلتُ، ليتني تركته يسبقني في الجري مرتين أو ثلاثًا. بعد ذلك بليلة واحدة لم أبذل جهدا في البحث عن أصدقاء جدد، فقد كانت أمي معي.

ثُم كان مستشفى آخر بعد سنوات قليلة؛ رموني في حوض كبير به لفائف شاش منقوعة في الجبس، كانت ساقي مكسورة. في البداية؛ لم أشعر بالألم، ثم بدأ يتسلل ممزوجا بخدر، وزع دبابيسه من ركبتي إلى ساقي، ثم وزع مساميره تدق رأسي، أغيب لدقائق عن الوعي، يُجلسونني على كرسي متحرك، قدم مهذبة مكسوّة بقماش البنطلون وثابتة على السنَّادة، والأخرى بيضاء وقحة ممددة في وجه العالم. كنت في الخامسة عشرة، أظن أن بحوزتي مفاتيح كل المدن والقلوب. في ليلتي الأولى مُجبَّرا عكفت نصف ساعة أرسم امرأة عارية على الجبيرة

البيضاء، ونصف ساعة أخرى أجردها بأول موسي حلاقة جرى على وجهي خوفًا من أبي.

ارتدّت مخيلتي للوراء، للوراء أكثر، فأكثر، حتى اصطدمت بعنق زجاجة يدخل في قدمي ويصنع فيه حفرة تكفي لبيات عصفور صغير، ونساء يزغردن، أمامهن طست نحاسي كبير مليء بالفيشار والسوداني والنوجة، واحدة منهن تُعبئ أكياس نايلون شفافة من محتويات الطست، تُلقيه على العيال الذين يرفعون أياديهم، أختي نائمة وملفوفة في حجم ذراع، وأعرف أنهم أسموها حسناء. بجوارها هون نحاسي لا تزال أصداء دقّاته ترن في أذني. وغربال مكسور الحافة صدئ السلك، وأنا أقفز من الشباك في خفة لِص، أسرق الأكياس الجاهزة من خلف امرأة تحرس الفيشار، أتذكر وجهها جيدًا، الملامح الجهيمة الفَرِحة، لمعة العين وانبساط الأنف الكبير، ظهور أسنان متفرقة ضرب السوس جذورها وأكلت الأملاح حوافها. الانشكاح عندما تنتفخ عروق الرقبة ويزداد القفا عرضا ومتانة، حركة اليدين بلا ضابط أو خطة مسبقة. المرأة تقف أمام الطست، تحجز العيال الأشقياء عن التسلل ونهب السُّبوع، هي فقط التي تمنح، وهي أيضا التي تمنع، بدينة كانت، كلما جلست التصقت الجلابية بعجيزتها. كنت في الرابعة، أسرق من سبوع أختي حسناء وأعطيه لأصدقائي، لا تراني حارسة الطست، ذات قفزة طائشة من الشباك رأتني، فطارت ورائي، جريتُ بفعل الخوف من ذاك الجبل المتحرك الذي يطاردني، وقبل أن تصل للشباك قفزتُ إلى الشارع، جاءت قفزتي فوق عنق زجاجة مكسور، صرختُ، ولطمت أمي، لم

تُكمـل القفزات السـبع فـوق أختي المولـودة، خرجت من غرفتها تشـق أدخنـة البخور وتـدوس على فتـات الفحم، صنعت أخـدودا صغيرا بين صف النسـاء حتـى وصلت إليّ، سـبقها عمي محفـوظ بملامح جهيمة، تخبط أمي يدها على صدرها ويهمّ عمي بمد يده عليّ، أنزفُ ولا أرى من الاثنين إلا ملامح مشوّشـة وأفواهًا تُخرج كلمـات كثيرة متلاحقة، رأس عمـي الكبير يدنو مني ويتدلّى شـاله المقلم بطرفين مضحكين، سـمعت صوتـه الخشـن: "حمار. عفريـت. جزمة. يخرب بيتـك". وتقترب أمي، يتقاطع صوتها مع الصوت الخشن: "حبيبي. عيني. قلبي. مال رِجلك؟". يبتعد عمي بملامحه وشاله المتدلي. تخلع أمي شالها الأبيض عن رأسها وتلـف بـه قدمي حتى تصبح في حجم رأسـي، تحملني وتشـقّ بي صف النسـاء في طريق العودة إلى حجرتها مرة أخـرى، ترفض تنزيل الحمولة لأي من النساء، لم أرشد أمي عن السيدة البدينة التي كانت تطاردني، ولم أوافـق أن تحملني بدلا مـن أمي. كانت أختي لا تزال ملفوفة في قماشـة بيضـاء وحولهـا بالونـات ملوّنـة وبقايا ملح، نِمـتُ بجوارهـا، قدمي في حجم غرفة، توقّف الدم عن بلّ شال أمي الأبيض، وتوارت المرأة البدينة حارسة الفيشار، حتى رأيتها وطستها كدخان تبدد.

ابتسام لا تزال تفرد ظهرها.

طالمـا أحببـتُ المطـر الليلـي، تبـرق الحبات فـي الضـوء كاللآلئ، الشارع مغسول، وأنا متأرجح بين ما أراه حقا وما أتخيل رؤيته، سيشقون جمجمتـي كما تُشـق ثمـرة جوز هنـد، تحاول الكتـب إقناعنـا أن العالم يتقدم للأمام، الإنسـان يطوّع الذرّة ويغزو الفضاء، لكن الواقع يقول غير

تماما، فالجروح لا تزال تغلق بخيط وإبرة كأنها رتق في ثوب، والأطباء يستخدمون المشارط والمناشير في عملياتهم الجراحية. ذات مرة؛ رأيتهم في التلفزيون يثقبون جمجمة إنسان بشنيور كهربي، كان ينقصهم أن يعلقوا فيه مسامير ومشاجب.

وأيقنت أنها، وأنا أحدثها عما يشغلني ستهز رأسها بالإيجاب المستمر، ستوافق على كل ما أقول، شرط أن أتركها تعود للسرير مرة أخرى.

حاولت أن يتفجر شيء جديد في رأسي لمجرد أنني أقلب الأفكار، حاولت التفكير بهدوء، لم أكن أعرف في الحقيقة كيف يمكن أن يفكر إنسان بهدوء، ورغم ذلك فقد حاولت وانتظرت النتائج، لم تعد الأسئلة محببة، هل يمكن أن أستبعد التفكير من مخي، كيف يمكنني استبعاد التفكير في الشيء الذي أفكر به؟

وفكرت أنني في المرة الرابعة سيكون ذلك شيئا مملا جدا.

خوفي المستبد يمنعني من التركيز في شيء محدد.

عندما أتخيل نفسي بلا ذاكرة أفكر:

"كم سيكون جميلا أن أموت".

لأنه جاء وقت الجد، فكل ما قلته خارج الموضوع، قراءة أوراق قديمة تنتمي لزمن لم يعد موجودا، التركيز في ذكريات لا تهم غيري، البحث عن مدرسة لابنة لم أنجبها، كلها محاولات فاشلة للهروب مما يؤلمني دون توقف. أنا مريض بالسرطان.

***

جزء تطفَّل على رأسي ولا أدري من أين جاء، ترددتُ في اتخاذ القرار بإجراء عملية جراحية لاستئصاله، حسمت موقفي باتخاذ الخطوات الطبية اللازمة فقط منذ أسبوعين، عندما وقفت أمام كنكة البُن وأنا لا أعرف كم ملعقة سكر سأضع فيها، ثم تكرر الموقف بأشكال مختلفة، أترك الصالة لأدخل غرفة نومي، ثم أقف لأكثر من خمس دقائق أفكّر، ما الذي جاء بي إلى هنا؟ قلت في نفسي، لو ازداد نسياني أكثر من ذلك سأجري العملية مهما كانت نسبة الخطورة. وتعقّد الأمر أكثر عندما نسيت هذا القرار أيضا.

نسيت مفتاح الشقة في الكالون بالخارج، بل نسيت ذات مرة أن أتقاضى راتبي عن أحد الشهور ولم يُذكرني إلا الصرّاف الذي قابلته بالصدفة. ذلك غير الخلط المتكرر بين بعض الأغراض المنزلية، إشعال شمعة دون أن ينقطع التيار الكهربي، سلق البيض في براد الشاي. ذات ليلة غريبة، أشعلتُ البوتاجاز لقلي البطاطس، نسيتُ الزمن أو نسيني، جفَّ الزيت وتفحَّمت البطاطس أمام عيني دون أن أطفئ من تحتها النار، استيقظت ابتسام من شدة الرائحة وأطفأت الشعلة بسرعة، تعثَّرت وهي في طريقها لغلق مفتاح الغاز، كنتُ شرسا في مقاومتها، أمسكتُ يدها وجذبتها بقوة، لا أعرف عن ماذا كنت أدافع؟ فتحتْ نوافذ الشقة وهي تنظر إليّ بعينين جاحظتين، نيّمتني على السرير، فردت جسمي، استسلمت كشخص سيُجرى عليه اختبار سِحر، دلَّكتْ ناصيتي وخللتْ أصابعها في أصابعي، في ذلك اليوم نمتُ وكأنني ميت.

بعد تكرار مواقف كثيرة مُشابهة تأكدتُ من وجود فجوات كبيرة في رأسي، وأن علاقتي بتفاصيل الأشياء تمر بمشكلة حقيقية، حاولتُ

التغلب على رعبي بقراءة القرآن كثيرًا، رددتُ أبياتا من أشعار فؤاد حداد وصلاح جاهين وبيرم التونسي، قمتُ بالليل وأنا أغني مقاطع من أوبريت الليلة الكبيرة، ثم فكرتُ في كل الذكريات التافهة التي لا يعرفها أحد غيري. كاشتراكي مع صديق لا أتذكره في شنق فأر صغير، أو رشق عود كبريت في ظهر خُنفسة وتتبعها وهي تهرب من أيادينا ببطء.

في البلكون، كرسي "بوف" وحيد، منجد بقطيفة زرقاء متربة، نجا من البلل، أنقذته حواف الستارة، يستوعبني في الليالي الفائتة دون تذمر، الشجر في الأسفل غسلته الأمطار، منظره يوحي بمناخٍ ريفيٍّ، تعبق الجو رائحة قوية لغابة قديمة، لتربة وأوراق ذابلة، ميتة، مادمتُ مستيقظا فاليوم لم ينتَهِ بعد، مر بأحداثه العادية وتكراراته المملة، الأكل، القهوة، القراءة، الثرثرة، الرد عليها بمزيد من الثرثرة،ضغط الأمعاء فوق قاعدة المرحاض، الـ صباحات الخير، الـ مساءات الخير، الـ تصبحين على خير، والرد التقليدي، الـ وأنت من أهله. عندما أخرج من اليوم أصطدم بالأمس البعيد، البعيد جدًا، حرب استنزاف، استدعاء، استجداء، أشياء انفلتت ولن تعود أبدًا، أبي وقصة حبه الريفية مع أمي، هجرتهما الداخلية إلى القاهرة، وهجرة محمود الخارجية إلى إنجلترا، يعود المطر من جديد، أستدير فوق "البوف" إلى داخل الشقة، تصطدم عيني بمكان برواز قديم أعلى الجدار، كانت معلقةً عليه ذات زمن صورة زفافنا، ومنذ سنتين عُلّقت مكانها ساعة حائط، أما الآن، فالبرواز الذي يحفظ لنا شبابنا ملقى خلف الكنبة، والساعة توقف زمنها فوق الثلاجة، مكانهما الآن بقعة بوية مستطيلة، درجة لونها أغمق قليلًا من بقية الجدار.

منذ خمسة أشهر جاءني الزلزال في هيئة جملة خبرية، شخص أراه للمرة الأولى ينزع عنه كمامته ويقول بهدوء:

"يبدو أننا أمام حالة سرطان".

بعد ترددي على معامل التحاليل المختلفة أسأل الطبيب:

"بنسبة كم في المئة ترى التشخيص دقيقا؟".

يصمت لفترة، يتأملني خلالها جيدا ثم يقول:

"التشخيص سليم، سليم تماما".

لم يعطني فرصة ولو ضعيفة لإعمال الخيال، لم يمنحني الوقت لأكون متفائلا.

في جيبي تذكرتان للأوبرا، كنتُ قد حجزت حفل موسيقى عربية قبل زيارة الطبيب بيوم واحد، ذهبنا في الموعد المحدد وكأن شيئا لم يكن، وتعجبت ابتسام لذلك، خرجنا من العيادة إلى دار الأوبرا مباشرة، أخرجتُ رابطة العنق وعقدتها قبل الدخول بدقيقة، دائما أفعل ذلك، صممتُ هذه المرة أن ندخل أنا وابتسام "أنجاجيه" كنت أريد التأكد من وجودي بجوارها، أثناء العرض كان المايسترو يهتم بوضع المشبك المعدني فوق النوتة الموسيقية، وأنا أهتم بقربي من إنسان أشعر بانتمائي الكبير إليه، أحبه حتى لو كنتُ معرضًا لنسيانه، جلسنا في الصفوف الأولي، نتبادل النظرات، جلجل صوت الأوركسترا فأخذني من تلك الحالة النشوانة، تسللت الأنغام كأني أسمعها لأول مرة، كانت عينا ابتسام واسعتين إلى حد خيالي، رمشاها ينغلقان بنعومة مع كل حركة موسيقية جديدة، لكنها لم تدق كعب حذائها مع العزف كما تعودتُ

منها دائما، في تلك اللحظات أصبح أمامي ابتسامان، ومسرحان، حتى المايسترو، والجمهور، والنجفة التي تتوسط المسرح، كل شيء أصبح اثنين، أحدهما حقيقي يحدث بالفعل، والآخر أتمناه في خيالي، رأيتني أنا وابتسام طائرين، نحلق حول النجفة الكبيرة، تفرد ذراعيها وأنا فوقها، نصبح طائرا واحدا، بعد الحومان قليلا فوق العازفين نعود إلى الكرسيين مرة أخرى، ركبتانا متلاصقتان، يميل فمي على أذنها، أهمس بأي كلام، تتخطى أنفي طبقة العطر حتى تصل لعرقها، رائحة الجسد الأصلية التي لا يمكن غشها. وأعود فأرى المايسترو وهو لا يزال منشغلا بتثبيت المشبك المعدني فوق النوتة الموسيقية.

حاولتُ ترتيب أوراقي منذ الأيام الأولى، أعددتُ نفسي للأشعة وجلسات العلاج، ورغم ذلك حاولتُ أن أبدو مُعافى أمام الناس من أجل كبريائي، أرسم تصوراتي عن نفسي وعن الأشياء بريشة مُتخيلة. فكرتُ طويلا في مسكنات للشواكيش التي تنهش رأسي، أي شيء يمكنه أن يُهدئ الألم، ولو بطُرق غير مشروعة.

ما الذي سيحدث إن مت؟ أتخيل، صمت طويل، ثم أستمع بعد ذلك لصوت تنفسي في مجرة بعيدة. ما كان يُخيفني حقا أن أقف في منتصف الطريق، لا موت ولا حياة، بل تمني شيء واحد منهما دون الحصول عليه كاملا.

تأتيني الأصوات من الماضي مُتقطعة، كأنها توزيع موسيقي جديد لصوتي الذاتي، تصطحب معها أحداثا أصبحت ذكرى، وأشخاصا أصبحوا ترابا.

أول شيء حاولتُ تجنبه أن تُخبر نظرتي من يراني أنني أعاني من أي أعراض غريبة، فأقاربي أصبحوا ينظرون إليّ كما ينظر شخص إلى طيور نادرة.

بعد أن عرفتُ طبيا ما يدور في رأسي تحولتُ لإنسان آخر، الأدوية التي أتناولها بانتظام كانت تصيبني بالانطواء، أو بالأدق بالاكتئاب، خمسة أشهر أصبحتُ خلالها مخزن عقاقير متنقلا، معدتي تهضم كل الاقتراحات الطبية دون اعتراض، والكانيولا جاهزة دائما للسحب والضخ، عذاب مستمر من أجل تأجيل عملية جراحية يُحتمل أن تمحو كل بضاعتي التي أعرفها، فتمحوني معها.

في المستشفى الجامعي رقطت ذراعي بُقع زرقاء لكثرة الوخز، كنتُ أتقبل ذلك بصبر غريب، ربما لاقتناعي أن المستشفى يحتفظ بالمريض فقط عندما يكون هناك أمل في علاجه، الأطباء يقولون إن جلسات العلاج ستشفيني، ولا أجد بديلا عن أن أصدقهم.

أُخرِج ورقة الفحوصات الطبية وأقرأها، إلى حد ما كنتُ أفهم في تلك النسب، المعدل الطبيعي والحد الأدنى والحد الأقصى، السكر في الدم، والضغط، إنزيمات الكبد ووظائف الكلى، نسبة الأملاح ومستوى النقرس، حتى الأنيميا، أعرف أن نسبتها يجب ألا تقل عن 14، كانت كل الوظائف محددة في الفحص الشامل، إلا وظائف الذاكرة، الشريط الذي يحفظ التفاصيل من الغياب، وتتشابك فيها الأصوات مع الألوان والصور، تصنع عالمها كحالة كيميائية مُعقدة، الذاكرة - أواصل تأمل التقرير- غير مخصص لها خانة بين أجهزة الجسم الحيوية في الفحص الشامل.

حتى الوزن ــ يُكمل خيالي وأنا أنظر في التقرير ــ الكبد كبيرة وثقيلة، والبنكرياس أتخيله خفيفا كريشـة في محبرة الأنسجة، أما الذاكرة فوزنها يثقل أو يخفّ على النفس وحدها، أتخيّلها دائما على شـكل طائر يحلق بعيدا باستمرار.

لا أزال أستسلم للجلوس في البلكون، مستكينًا فوق كرسي "البوف" أصب الشاي وأُفاضل بين نصف الليمونة ووريقات النعناع، خفّ المطر قليلا، أقف حافي القدمين ولا أشعر بالبرودة، تمر أمامي الأشهر الخمسة الفائتة في لمحة خيال بارق، ترددي على المستشـفى الجامعي كل بضعة أيـام، قالـوا لي فـي الصحيفة التـي أعمل بها أنهـم سـيتكفّلون بمئة جنيه عن كل يوم علاج، وفي القسـم الاقتصادي بالمستشـفى التعليمي كانت التكلفـة مئتين، تحملت نصف القيمة، ووجدتُ أمامي اختيارين، إما غرفة بهـا سـريران وتليفزيون، أو عنبر به عشـرة أسـرة بلا تليفزيـون ولا باب، اخترت الأول، ورغم ذلك لـم أسْـلم من تحلّـق الطلبة حولي كل صباح، كانوا يتفحصونني كحالة، أسمع أصواتهم دون أن تُفتح أفواههم، انظروا إليه، إنه مريض بسرطان في المخ، ها هو أمامكم لا يزال على قيد الحياة، يمكنه أن يتكلم.

يتقدم أحدهم خطوة ويوجه إليّ سؤالا:

"هل تشعر بالرغبة في القيء صباحا؟".

وقبل أن أُجيبه يتقدم زميله الآخر بسؤاله:

"هل تشعر بضعف في العضلات والساق والذراع؟".

ثم تنشط الألسنة في طرح الأسئلة:

"تشعر بدوخة ورؤية ضبابية".

"رغبة مستمرة في النعاس".

"عدم تركيز".

"صعوبة في الكلام".

طالما كنت أهرب من نظراتهم، لا أود سماع البراهين الطبية التي تؤكد مَرَضي أو تنفيه، يحدق الطلبة في عيني، يضغط أحدهم على صدغي، أشعر ببصماته مطبوعة على ناصيتي أو عنقي، لا أعرف لماذا كنت أتقبل ذلك بابتسامة ودود، أتناول الأدوية في مواعيدها وأحضر جلسات العلاج بانتظام، كان من الممكن أن أكتسب بسبب هذا الالتزام الطبي لقب المريض المثالي.

غالبا أتلقى الجرعات وأعود مع ابتسام، وأحيانا أرقد يوما أو يومين، تظل معي طوال النهار، تنصرف عند الغروب، ثم تعاود المجيء عند شروق اليوم التالي مُحملة بوجبة خفيفة وجرائد الصباح.

كان المرض يأتيني على شكل هجمات لا موعد لها، لم أتوصّل لمعرفة الأسباب التي تحدد مواعيد تلك الهجمات.

أتصفح الجرائد بغرض الخروج من الجو المشحون بروائح الأدوية والابتسامات الخَدَمية الشاحبة، أحاول الربط بين الأخبار التي تملأ الجرائد، مزايا الشاي الأخضر مع الزنجبيل، افتتاح وزير الثقافة جاليري

في الزمالـك، القبـض على طفل شـوارع سـرق مديـر شـركة بالإكراه، اعترافات لص اتخذ قرارا بالتوبة، أسـعار السيارات، حظك اليوم، صدق أو لا تصدق، نَعَايا وفيات، تهاني وافتتاحات، أوكازيون بنصف الثمن.

كثيـرا ما كنت أترك سـريري وأتجول في المستشـفى ليـلا، فأرى في البعيد تروليات اسـتانلس سـتيل تحمل النفايات الطبيـة الخطرة، أراقبها بشغف وهي تأخذ طريقها الأخير نحو المحرقة.

أصبـح صمـودي يعني بشـكل ما اسـتبعاد الموت، ومـاذا يعني ذلك صراحـة؟ مـا الصعوبة في الاستسـلام؟ صمت تام، توقف عـن التفكير، تمني الموت لا يكلف صاحبه أي عناء، أما محبة الحياة ففيها كل السحر والشقاء.

***

يقول الناس ذات صباح، أو ذات مساء، أو ذات مرة، تمنيت أن أضيف للغة جملة جديدة "ذات قبل مَرَضي".

تخيلت نفسـي ذاهبا لجلسـة العلاج دون إحضار جسـدي معي، فقد كان هـو أكثـر مـا يتألم فـيّ، تمنيتُ لـو أُدخِلُ إلـى المستشـفى مجموعة أفكاري فحسـب، تنام الأفكار على المحفَّة البرتقالية ذات القضيبين، يتم فحص خلايا أفكاري بالرنين المغناطيسـي والأشـعة المقطعية، يأخذون منها العينات ليقيسـوا مـدى نضجها أو تفاهتها، لكـن الأفكار وحدها لا تفكـر، لابـد لها من وعاء يحتويهـا، مخ مثلا، والمـخ مريض، ليس ذلك فحسب، إنه يحاول استمالة باقي الأعضاء لتصبح مريضة مثله.

المسالك البولية - يقول الطبيب - نريد فحصها، لم تكن لدى أفكاري مسالك بولية.

يبدو أنه لا مهرب، لابد أن أحضر جسدي معي في كل مرة، أضعه تحت أمر الاختصاصيين، يسحبون منه العينات ويُدخلونه في مواسير مُعقمة ومضيئة، ثم يُخرج إليّ الكمبيوتر من طابعته ورقتين نظيفتين فيها جميع أدران الجسد، فمهما كان الإنسان الداخل إلى الماسورة سليما معافى، لابد ستعثر الأجهزة الحديثة على شيء ما يحتاج إلى علاج.

وبدأتُ أستسيغ إضافة مضادات الاكتئاب لشنطة أدويتي، ثم أستدعي مراحل أولى من حياتي، ربما لم أفكر فيها من قبل.

ذات قبل مرضي، كنت طفلا دون الرابعة، أبحث عن الكلمات، وما أحصل عليه لا يعبر دائما عما بداخلي، كل معرفتي مرتبطة بالروائح، وجميع الكائنات بلا ظلال، أخاف من الأبواب والنوافذ، يُهيأ لي أنها تفصل بين أشياء كبيرة ومهمة، تحبس كائنات شفافة لا أحد يراها، تخرج ليلا لتضيء الطريق، تقصدني أنا بالذات، عندما تضع أمي عليّ حِرامها الأسود الثقيل وأنام، أرى تروسا هوائية تفرم الهواء، وأنا بين أسنانها المشرشرة أتشكل، أصحو في الصباح لا أعرف فرقا واضحا بين الدنيا التي أعيشها والدنيا التي أفكر فيها.

كان العالم يتلاشى كل ليلة مع الظلام، ليولد في الصباح بثوب جديد، أتبع دفء الشمس وأحضان النساء، جاراتنا البدينات، أتقلّب بين صدورهن كاللعبة، تتخم أنفي رائحة حليب الرضاعة الممزوج بالعرق، وروائح طعام عالقة مختلطة بعطر قديم، أريح من دفء لحم حار، ممزوج

برائحة هبوب الصيف وحبوب اللقاح، وصورة ثابتة لا تتغير، انحناءة امرأة بدينة عليّ وحملي بعيدا عن الأرض، ما بين صدرها وكتفها أتسلق دون مجهود، تتعطل الجاذبية الأرضية بين ساعديها الكبيرين، أراقب نجوم الليل من بين البيوت الصغيرة، كانت مُخيفة، عناصر تشكلت بداخلي وارتبطت هي الأخرى بالصيف ورائحة أجساد النساء، الكلام الذي سمعته والتراب الذي داسته قدماي والعرق النسائي، الثوم الفاقع ورائحة التقلية والتوابل، كلها صارت واحدا، خلطة الحياة، حياتي، مقومات أولية فيها كل المقادير لطهي عُمر إنسان.

بعض الحوادث المغرقة في بساطتها كانت تؤثر في حياتي كلها دون وعي، عن طريق الخدر وحده تعبرني، كنت أُغمض عيني عندما يفتح أحد صنبورا، رؤية الماء الشديد ينهمر كانت مُخيفة، حتى الآن أتجنّب النظر إلى الماء المتدفّق حين يبْيَض، عندما يندفع ويأخذ في طريقه كل شيء، يطيح بالأطباق في الحوض، يكسر الأكواب الزجاجية، تتطاير الملاعق يمينا ويسارا، والماء لا يزال ينهمر من الماسورة وهو يشتعل شيبا، وأنا لا أزال خائفا، تتقلص الكلمات في فمي، لا أعترض على ما يحدث، أجري بالخارج، فقط أجري، أرى الدوامات الهوائية تطيّر الأوراق من الشارع، أتخيل للريح صدرا ينفخ فتهب الزوابع ويُثار التراب، أخشى أن تبتلعني رئتاه دون أن تلحظ أمي.

بدأتُ أنتبه لأقدام طويلة تلف من حولي، وأيادٍ تُقدم إليّ بعض احتياجاتي، أجلس على كرسي صغير بجوار نافذة مفتوحة، آكل وأنا أتابع أصوات المارة وأربطها بتحركاتهم، صار صوتي صوتهم، وكلامي

كلامهم، فيما بعد تلبستني انفعالاتهم، ثم أصبحت ذاكرتي رخوة بسبب ازدحامها بالأسماء والأشياء، ثم لم أعد أتذكر شيئا.

أفكاري تتحرك بشكل دائم، كلما صوّبتُ تركيزي تجاهها هربتْ إلى مناطق جديدة.

اختزنتُ في مكان لا أعرفه حياة لم أحيها، عشتها بعيدا، هناك، كنت أخرج مع ابنتي فريدة، أُسرف في الإنفاق عليها، نذهب إلى المطعم، نذهب إلى الكازينو، نشاهد عروض أفلام الكارتون. ربما لم أكن أريد الجلوس مع المبجّلين العجائز في الجريدة، رؤسائي الذين يقولون كلاما من أفواههم؛ ويقولون كلاما آخر من أقلامهم.

اختراع فريدة كان ردا على هؤلاء، لم يعد يهمني من الذي استدعى هذه البنت الجميلة ذات الضفائر الذهبية والبرنيطة السعف، أنا، أم ابتسام، المهم أنها أصبحت موجودة فوق رف معلوم من الخيال بالضرورة.

يحضر الصداع بسرعة ويذهب ببطء.

ذات حياة أخرى اشتريتُ بيتا واسعا بحديقة، نَبَتَ فيه أخ لفريدة، عنيد ولا يستمع لنصائحي، ربما لتظهر أخته الجميلة بجواره في صورة ملائكية مُرضية لخيالي، الصورة التي استقرت عليها أثناء استدعائها، في الحديقة أزرع ورودا، أضعها في الكتب حتى تذبل، كانت ابتسام تزرع أشجارا غريبة، قالت إنها روسية المنشأ، شتلات من ذقن التيس ورُكب الجمل، اعتقدتُ أنها تمزح، لكنها كانت جادة جدا فيما تقول.

بعد أن زال رحيق الخيال نظرت حولي في البلكون فلم أجد الأشجار ذات الأسماء الغريبة. أين فريدة وأخوها، أين البيت الواسع والحديقة الملحقة به؟

حاولت الإمساك بالخيال، فهو لا يتشابه، وكانت الصعوبة الدائمة هي تحويله إلى كلمات.

***

كل الأشياء التي أود كتابتها مجرد نقاط محدودة في ذاكرتي، غيمة صغيرة تموج في سماء هائلة. تحيطني الكلمات بأفاعيها وضواريها ونباتها الأسطوري. لا يتحقق من الوعود إلا ما يَرِدُ في الأحلام، تتضارب الأصوات في رأسي، وكأنها تصخب في مكان آخر غير دماغي، حياتي كلها صرح من خيال، أخشى أن تسقط كخيمة ضعيفة اقتلعتها رياح غير مُتوقَّعة.

بين أوراقي البيضاء خبأتُ مفكرتي الصغيرة، كانت تضم أشعاري التي كتبتها في مرحلة الرقص على السلم بين سذاجة الطفولة وفوران المراهقة. لكنني عندما قرأتها مرة أخرى وجدتُ فيها بعض الكلمات التي استوقفتني. كانتْ المفكرة تعني بالنسبة لي سجلًا لبداية التعامل مع العالم، هروبًا متوقعا من قسوة تعليمات أبي إلى رومانسية حالمة ومفرطة.

تبرق المشاهد ثم تتلاشى، كالصور في فيلم السينما، الصورة الجديدة التي تحل مكان القديمة ليس بالضرورة أن تنتمي إليها، خرجتُ من الواقع في لمح الخيال، عشتُ مع اللحظات التي كتبتُ فيها هذه الكلمات، الآن أقف وأزنها بالمعايير العقليّة، للحظة، كانتْ الصور الوردية تقترب مني كما لو كنتُ قد ذهبتُ في رحلة زمن عكسية.

في الســابعة عشرة أنا، أمشــي يوميا أكثر من ثلاثة كيلو مترات، مقدار المسافة بين مدرستي الثانوية ومنزلي، أراها تقف في البلكون، كل صباح أراهـا. بنـت لم تكمل الرابعة عشـرة، طفلة بالمقاييـس المتعارف عليها، أسَـرَني منظرها وهي واقفة، كانت تنظر إلـيّ بغرابة وتأمل، العين محدقة والصـدر منتصب في عفوية الأطفال، تبعد برأسـها ثمَّ تلتفت مرة واحدة لتفاجئنـي، كنتُ أنتظر منها هذه الحركة دائمـا، نبتت كلمات الأغاني في وجداني وأسـرتْ نفسى منذ تلك اللحظات الناعمة، بدأتْ تراكيب اللغة الرومانسـية تعرف طريقها إلى خيالي، وبشـكل دائم كنتُ أضع في جيبي ورقـة وقلمًـا، أخُطُّ كل ما يمـوج بداخلي، كل ما يمكننـي رصده من لُغة المشاعر أضيفه إلى مفكرتي الصغيرة، منذ تزوجت وأنا أضعها في مكانٍ قصي، بعيدا عن يد ابتسام.

بـدأتْ كتابـة الخواطـر تأخـذ طريقهـا لتصبـح عـادة يوميـة، لا أترك الكلمات تهنأ بسـيولتها في الداخل، كنتُ أكتبهـا على أي صورة رُكِّبَت، وبدأتُ أشعر أن الكلمات وحدها هي التي شكَّلت هذا العالم، وأن كلمة نِمر لو اختفت سيختفي ذلك الحيوان المرقَّط من الوجود.

ثـمَّ تطـورتْ الحالـة وأصبحـتُ مهتمـا بفكرة التسـمية نفسـها، كان التحديق في مثل هذه الأفكار يعني انهيار العلاقة بين الشيء واسمه، فقد سبق أن فكرتُ في سبب تسميتي مصطفى، وفشلت في العثور على إجابة مقنعـة، ثـمَّ بعد ذلك توقَّفتُ أمام الأسـماء ومعانيها فـي القاموس، كنتُ كمن يستعد لفض اشتباك معادلة كيميائية ومحاولة إعادتها إلى عناصرها الأوليَّة.

أصبحتْ هذه البنت مفتاحًا لكل علاقتي بالحياة، فستانها الروز القصير جعلني أفضل اللون الروز على سائر الألوان، عينها الواسعة أصبحتْ دليلا على الجمال، صوت الترومواي الذي يهز الأرض تحت شبّاكها استحال إلى موسيقى تصويرية تتمّم المشهد، حتى البقال العجوز الذي يقف في دُكّان أسفل بيتها، أصبح من علامات المرحلة، رائحة الأجبان المختلطة دليل على وجودها قريبة من هُنا، الشارع وغبار الطريق، المئذنة القصيرة للمسجد، كل شيء أراه وأسمعه وأشمّه كان شاهدًا على قرب روح رومانسي من نفسي، بقي شيء واحد لا أعرفه، اسم هذه البنت التي حرّكتْ كل تلك المشاعر، تخيلتُ لها اسما لا يزال عالقا في رأسي حتى الآن، ليلى، أرسلتُ لها خطابًا غراميًا، كتبت لها: "اسمي مصطفى. وأحبك جدا" علّقتُ الورقة في فتلة، والفتلة في مصباح بازغ من عمود نور أمام بيتها، كنتُ أعرف أن ما أفعله يشبه تصرفات شخص طلع على كوكب وبدأ يخاطب كائنات مجهولة لا تتحدَّث بلُغته، لكن المسألة كان لها بُعدٌ آخر، فعندما أرسلتُ الخطاب هدأ في نفسي شيء، حيوان صغير كان متوترا وهائجا، حيوان نبت حديثا ويوجهني من الداخل، أوامره لذيذة لكنها لا تخضع لتفسير، حتى الآن لا أعرف هل وصلتْ كلماتي إليها أم لا. على باب بيتهم كانت تجلس امرأة خرساء، اقتربتُ منها فرأيتها تشير للمارة بحركات عنيفة، ترفع ذراعها وتصدر أصواتًا سائلة لا تفصلها كلمات كتلك التي أعرفها، فكرت للحظة أن أسلمها الخطاب، لكني تراجعتُ عن الفكرة سريعا بسبب جهامة ملامحها.

رأيت ليلى مرَّة واحدة عن قُرب، واكتشفتُ أنها ليست بليلى، وكان هذا فراقًا بيني وبينها، فراقا تسبب فيه تقاطع أزرق يظهر واضحًا عند معصمها.

وعرفت فيما بعد أن اسمها ماريان رفيق.

***

في إحدى الهجمات المباغتة استدعتْ ابتسام الإسعاف. للحق؛ خلال نصف ساعة حضرت السيارة بطاقمها، كانت نصف الساعة كما تشير ساعات المعاصم لا علاقة لها بنصف الساعة من الإحساس بالألم والصداع، لا أجيد قياس الوقت، المواقف المختلفة تمطه أو تضغطه حسب الحاجة للسرعة أو البطء، أقول لنفسي أثناء انتظار الإسعاف:

"عليّ ألّا أفقد الوعي".

يفردون السرير الذي كان كرسيا، يحملونني وينزلون بي الدرج، يهيأ لي أنني أنزف من مكان ما، أو أسِيل من فوق جرف، كان المُسعف ينظر كثيرا في ساعته، وأنا هائم في ملكوت بعيد لا أدري ماذا يحدث من حولي، مسجى على النقالة البرتقالي وحولي أنابيب معدنية بأحجام مختلفة، وابتسام جالسة بجواري. علّقوا لي المحاليل اللازمة وتحركت شاشات صغيرة بإشارات ضوئية، نائم أنا أستمع ولا أتكلم، الأصوات من حولي تشبه ثغاء مختلطا مع صوت كلاكسات تمطه الريح وتعطيه بُعدا أسطوريا، وأسمع مرة أخرى صوتي الداخلي:

"عليّ ألّا أفقد الوعي".

التشـوش كان بالخارج فقط، أما بداخلي فأعرف أنني شـخص سليم تمامـا، يحتـوي جسـدي علـى أعضاء قويـة تصلـح للتبرع ومنـح الحياة للآخرين، معافى إلا في عضو واحد، البضاعة كلها في حالة ممتازة، لكن مـا يجعلها أقـرب لخردة عضو واحد فقط، يحاول اسـتمالة كل أصدقائه مـن الأعضـاء السـليمة، أو التي كنتُ أظنهـا سـليمة. لا أزال أردّد بِحِس داخلي لا صوت له:

"عليّ ألّا أفقد الوعي".

مُخي، عضو واحد اضطرّ ابتسـام لطلب الإسـعاف، لجأت بسببه إلى الترامادول، لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، فالباب لا يزال مفتوحا أمام اقتراحـات أخرى، العلاج دائما مرتبط بإبطال مفعول الألم، لا أحد يهتم بإبطال مفعول الموت، الألم أهم، عندما أصبح الترامادول مسـكنا عاديا لجأت للحشيش، ثم فكرت في الهيروين ولـم أجربه، مشكلة واحدة كانت تعترض إتمام مثل هذه الصفقات، بائعوه الجوالة، صبيان دون العشـرين يختبئون بعيدا بين شـجيرات تخفيهم عـن المارة، يصرّفون بضاعتهم في أماكـن مظلمة، يتحدثون لُغة تحتاج لقاموس ويسـميهم الناس "ضَرِّيبة". عندمـا كنت أرى أحدهم صدفة في الضوء يُهيّأ لي أنه بلا رموش، فكرت لبعض الوقت أن أرسل شخصا يشتري لي ما أريد، شخصا يجيد التعامل مع هـؤلاء الخفافيـش، تراجعت عن هـذا المقترح برغم الألم الشـديد، فكيف أسـتأمن مـن أرسـله على أسـراري؟ كنـتُ أحرص على شـكلي الاجتماعي بطريقة مبالغٍ فيها، أحاول رسم هيئة تناسب خيالي في أذهان الناس.

المستشفى الحكومي برغم خدمته السيئة كان مصنعا للحكايات، فمن المرضى من يحضر حكايته معه، ومنهم من يخترعها أثناء مرضه حسب الوقت والهوى. ذات هجمة رقد بجواري رجل كان يحدثني عن أشخاص بأسماء غريبة سرقوا ميراثه، يُقلد أصواتهم ويجعلني أراهم، كأنه مسكون بأرواح هؤلاء الأشخاص ليل نهار، وما عليه فقط إلا أن يستدعيَهم. لم يكن يعاني مثلي من سرطان في المخ، كان ورمه في البروستاتا، ويفترض أن مخه سليم، حدثني عن علاقاته النسائية المتعددة، كان ممثلا رائعا، أقنعني بصدق أدائه أن كومة جلد محشوّة بالعظام بإمكانها أن تلعب دور دنجوان.

أحلامي القديمة كانت تطفو أكثر أثناء الهجمات، تمنيت أن أكتب رواية مثل روايات جارسيا ماركيز، تأثرت لمدة طويلة بطريقة الواقعية السحرية في الكتابة، لكن سرعان ما ذاب ذلك التأثر، فعندما أمعنتُ طويلا في الواقعية غير السحرية من حولي وجدتها مليئة بكل ما هو عجيب وغريب، ربما أكثر مما هو في روايات جارسيا ماركيز نفسه، كان النموذج الذي يحضر أمامي بسرعة هو بسَّام أخو زوجتي، فهو يصلح وحده لبناء رواية جيدة، كان يسخر من كل شيء، حتى من نفسه. قال لي كثيرا إنه حتى الآن لم يفعل شيئا يحبه، كلية الطب دخلها لأن أباه فقط أراد له ذلك، كان يفضل عليها كلية الفنون الجميلة، ويردّ عليه زوج خالتي بأنها دراسة مظهرية لا يهتم بها إلا الفاشلون. قلت لأخفف عنه توتره: "يبدو أن زوج خالتي عالي المزاج لأنه اختار لكما اسمين متقاربين: ابتسام وبسَّام" فردّ وهو يضغط فم جمجمة بلاستيكية على مكتبه الصغير: "لا مزاجه عالي ولا يحزنون" ثم التفت يمينا ويسارا وقال بصوت

خفيض: "هذا نوعٌ من الهيافة التي تصيب المتزوجين حديثا. أبي لم يهتم يوما بما نهتم به. كان يرانا من منظار ما يريده هو فقط".

بعد أن تخرج بسام في كلية الطب افتتح مركزا للأشعة والتحاليل، لم يستمر المركز في العمل إلا سنة واحدة، فقد حدث شيء عجيب غيّر مسار حياته، أو بالأدق، هو شيء عاديّ حدث لشخصية غير عادية، جاء إلى معمله رجل أعمال أراد التأكد من نسب ابنه، فأجرى تحليل DNA لإثبات نسب ولده الوحيد، وعندما تأكد من أن الولد بالفعل ابنه أقام احتفالا كبيرا لبسام داخل المعمل. في اليوم التالي كان بسام يجلس أمام شاشه اللاب توب يسترجع الحمض النووي الذي سبّب كل هذه الضجة، وعندما تأمل اللولب المزدوج رأى فيه ألوان قوس قزح زاهية، كان الحمض مجموعة مُعقدة ومتداخلة بدرجات متفاوتة من الألوان، بدا كعقدين متقاطعين من الأحجار الكريمة، رآه بسام يضاهي لوحات المتاحف، فقرر أن يكافئ الرجل الذي احتفل به، صوَّر الحمض النووي وأجرى له معالجة للإضاءة وزوايا الألوان، ثم وضع الصورة في إطار مُذهَب وأهداه إياها، انتشر الخبر بسرعة لا تُصدق، لدرجة أن أغلب من أصبحوا يذهبون لمركز الأشعة كانوا يريدون لوحة للـDNA الخاص بهم لا أكثر ولا أقل. كان ثمن اللوحة ستة أضعاف قيمة إجراء التحليل الطبي أو الأشعة، خلال عام واحد اشترى بسام سيارة حديثة وشقة واسعة من هذه الفكرة البسيطة، لكنه سرعان ما ترك الطب وهجر المعمل. استهوته فكرة أخرى أكثر إثارة، زميل له عرض عليه مشاركته في مزرعة للخيول العربية في السودان، سرعان ما توسعت المزرعة ونجح الصديقان في

افتتاح واحدة أخرى، لكن هواية بسام القديمة لم تندثر بكاملها، فما فعله مع البشـر أثناء وجوده في مصر فعل مثله تماما مع الخيول في السـودان، أصبح لـكل حصـان بـرواز مطلـيّ بمـاء الذهب يحمـل جينـه الوراثي، أو شـفرة التعريـف به، كان شـيئا جديـدا بالفعـل فلاقى إقبـالا كبيرا، ثم انقطعت أخبار بسام منذ أكثر من خمس سنوات.

رؤيـة بسـام لزوج خالتي تتفق بشـكل كبيـر مع رؤية ابتسـام، كثيرا ما كانـت تحكي لي عـن مواقفه الغريبة، فأثنـاء ظهور نتيجـة الثانوية العامة قـرر أن يذهـب معها، في الطريق إلـى الجامعة ركبت معه السـيارة اللادا القديمة وهي متوجسة من نظراته التي تتهمها بالفشل قبل إعلان النتيجة، قـال لهـا: "لو لم تحصلـي على مجموع يسـمح لكِ بدخـول كلية الطب فسـوف أعـود بـكِ في شـنطة السـيارة" أثنـاء حكيهـا كانت عينهـا تلمع بالدمـوع، ظنـت أنـه يهددها فقـط، لكنه عاد بها فعليا في شـنطة السـيارة لأن مجموعها لم يسـمح لها بدخول كلية الطب، ورغم السـنوات الأربع التي قضتها في كلية الإعـلام؛ فإن قرفصتها وبكاءهـا بين جراكن الزيت وفرش السـيارة وقطع الغيار المسـتعملة كان مشـهدا لا يمكن أن تنسـاه أبدا. شـعرتُ بصدقها عندما كانـت تحكي. في البداية لم تعجبني نظرتها الرومانسـية للحيـاة ورؤيتها الكلاسـيكية للعالم من حولهـا، كنا معا في كافيه، يداها تحيطان بالفنجان الدافئ مثل طفل يشعر بالبرد، تأملت الجو الغائـم بالخارج وأكملت تفاصيل أخرى مرتبطة بأبيها، في الصف الرابع الابتدائي رسبت في مادة العلوم، لم يهددها أبوها بشيء، لكنه دون كلام ذهب إلى دولاب ملابسـها وأخذ منه المريلة وحقيبة الكتب، وأخذ أيضا

الـسراويل والجوارب وكل الملحقات المرتبطة بالذهاب إلى المدرسة، وضعها في دولابه وأغلق عليها بقفل وقال لها: "لن تذهبي إلى المدرسة مرة أخرى".

ولولا توسل خالتي وبعض الأقارب ما كان له أن يعيدها إلى المدرسة.

إن الحياة اليومية يهدر باستمرار، يهضم كل الأحداث، المعقول منه وغير المعقول، وربما لو لم يحدث كل ذلك لكانت ابتسام الآن نزيلة لإحدى المصحات النفسية.

أثناء التذكر لا أشعر بأي ألم.

كانت لدينا عادات وأذواق مشتركة، في السابق لم تكن كذلك، بهتنا على بعضنا البعض بسبب العِشْرة، فأنتج هذا التكرار المستمر وجهات نظر شبيهة وقناعات متماثلة، لا أتصور فض هذه العلاقات بالنسيان، التفاصيل الصغيرة ديكور، ديكور فقط، في مشهد يبهت، يبهت بشكل مستمر.

ذات هجمة كدت أموت، بعد أن أفقت وأمكنني التركيز مرة أخرى فكرت في كتابة رواية على هيئة وصية، سرعان ما تراجعت وخطرت ببالي فكرة جديدة للكتابة، أثناء الهجمة الأخيرة باغتتني أفكار غريبة، أردت أن أختبر فكرة مجردة في ذهني، دخلت حمام المستشفى، أغلقته بالترباس ثم خلعت كل ملابسي، وفي لحظة استثنائية واقفة بين التركيز والتيه، بين الغفو والصحيان، انتصبت، هاجت في ذهني مشاعر لم تكتمل

وأحلام قديمة لم تتحقق، استدعيت حيواناتي المنوية، وبمنتهى النعومة استجابت، جاءتني تسعى من مكامنها السرية، لا تأبه بكل ما أفكر فيه، منفصلة عن همومي وحساباتي العقلية، منذ فترة طويلة لم أرها بعيني، منذ أن تزوجت تقريبا، استدعيت جميع أمنياتي وهواجسي، شهوتي، الوحيدة المهتمة بأن أتغلب على العالم، أهزمه في معركة طاحنة المشاعر لذيذة الحس، جيوش من النمل تزحف على سلسلة ظهري وقفاي، تنتقل برشاقة من مكان لآخر، أغمض عيني على مجموعة صور مرتبطة بمواقف معينة، تتعالى ضربات قلبي، يعلو صدري ويهبط بسرعة، ارتعشتُ وغامت رؤيتي، تدفق سائلي بجوار الحوض، انحنيت وتأملت الشريط المخاطي الشفاف على الأرض، هل لا يزال باستطاعتي أن أنتج كائنات غير مريضة بالسرطان؟ كائنات لا يمكن لأحد رؤيتها؟ تقول كتب العلوم والأحياء إن هذا السائل هو مخلوقات بشرية في طورها الأول، ملايين الأرواح تسكننا بلا معنى واضح لوجود كل هذه الأعداد المهولة، ربما هي حكمة توريد كائنات إلى مجرات بعيدة في المستقبل. وقفت تحت الدش واغتسلت، كنت سعيدا بحضور هذه الأرواح المجهرية، انزلقت أمامي إلى فتحة الصرف بليونة وسلام، ربما لأنها بلا سرطان، كنت فقط أريد أن أشعر بذلك.

***

طالما سمعت هذه العبارة من أمي: "الغربال الجديد له شدّة". هذا المثل لا يقصد الشدة بقدر ما يعني المرحلة اللاحقة عليها، التراخي، تأثير الزمن في الهمم وتقبُّل أشياء كان مجرد التفكير فيها مستحيلا، ذلك

تقريبا هو ما حدث معي. في البداية؛ كنت أتلفظ بكلمات غاضبة تسب الظروف التي وضعتني على خريطة المرض، بعد عدة جلسات علاجية لانت الكلمات، تزلجت عبر محفة الإشعاع البرتقالية، ثم أصبح الأمر مألوفا بشكل غريب:

"سأتناول فطوري وأخرج الحذاء البُني ثم أحضر جلسة العلاج".

وبعد أن أهتز نفسيا لمدة ساعتين بين الوخز واستعادة ذات قبل مرضي؛ أعود إلى البيت وأناقش ابتسام في أمور الحياة المعتادة.

وهذه الاعتيادية - يقول الطبيب مرارا - أفضل نفسيا لمريض السرطان، كان يقول ذلك وهو يبحث عن رسائل جديدة جاءته عبر الموبايل، فعرفت أن ما يمثل أزمة بالنسبة للمريض كان للطبيب أمرا اعتياديا ينساه بعد أن يُنهي كلامه مباشرة.

في بداية "شدّة الغربال" كانت ابتسام تبحث على "جوجل" عن أي شيء يمكن بعده أن تعود حياتنا طبيعية كما كانت، قرأتْ معلومة ذات مرة تفيد أن السبانخ عنصر غذائي بالغ الأهمية، ذلك لأنه غني بالفولات، وعندما استفسرت منها عن هذه "الفولات" ابتسمتْ ولم ترد، ثم طلبتْ العودة لمحرك جوجل من جديد لتفيدني، للحق، أفادتني ضحكتها في ذلك الصباح أكثر من اكتشاف أهمية السبانخ.

كانت تدخل كهف الـpdf وتخرج بجعبة ملآنة بالأوراق المطبوعة، حمّلتْ كتاب "علم الأورام القديمة" آراء لأبقراط وأبو القاسم الزهراوي، وسط الأوراق كانت هناك بعض قصص خيال علمي لكيفية التغلب على الأمراض المستعصية، رجل وافق طواعية على أن يجمدوه ثم يفكوا

الثلج عام 2000، لا أعرف بعد أن حلت سنة 2000 هل فكّوا الرجل من التجمد أم أنه لا يزال في الفريزر الطبي؟

تلاعبت الأوراق بأفكاري وفقدت الرؤية، فعدت أكثر ميلا للانتظام في أداء الصلاة.

اقترحت ابتسام أن نذهب معا لأداء العمرة، وأفكر، هل تقصد بهذا الاقتراح أن نصبح مجرد زوجين يشعران بالورع والتقوى أثناء أداء مناسك مُحببة إلى النفوس، أم أن لديها أفكارا أخرى خاصة بحسن الخواتيم؟

اعتدت تدفّق المعلومات فوق رأسي من عند العم جوجل: "شُرب القهوة ثلاث مرات في اليوم له أثر إيجابي في سرطانات الرأس والعنق، أما الشاي الأخضر فلا يضر، لكنه لا يفيد في حالتي، لأنه مختص بالوقاية من سرطان الرئة، وفي موقع آخر اكتشفت ابتسام أن الإكثار من تناول الأطعمة التي تحتوي على الفولات يزيد من احتمالات الإصابة بالسرطان".

اجتهدتُ حتى توصلت لوجود كيماويات نباتية phytochemicals تساعد في إزالة سُمِّية المسرطنات من الجسم وتنظيف الخلايا.

كانت تريد تسهيل الأمر عليّ، لكنه تعقّد أكثر. تكدست أوراق مطبوعة مليئة بنصائح لا تؤدي الغرض المطلوب. زادت كميات البقالة والخضروات التي لا نحتاج لأغلبها، رُصت أرفف الثلاجة بأشكال وألوان من الكابوتشا والبصل الرومي والشيكوريا، أكياس من الذرة

...مية، وشيء آخر نسيتُ اسمه يشبه الفاصوليا. كيف سيستفيد جسمي من كل هذه الأصناف؟ أنا لا أعاني من سوء تغذية، وإذا افترضتُ أن هذه الأغذية مفيدة بالفعل لدحر المرض؛ فهل تصلح مع كل مريض سرطان دون اعتبار لنوع المرض وطبيعة المريض؟ ومما يزيد الأمر تعقيدا أنه يجب تناول هذه الأطعمة طوال فترة نمو الخلايا المريضة، فماذا عن الذي أصيبت خلاياه بالفعل؟ هل يتناول الإنسان السليم هذه الأنواع الغذائية الصارمة كخطوة استباقية، ماذا لو لم يكن ذلك الشخص السليم مؤهلا للإصابة بالسرطان أصلا، هل يتناول أطعمة رغما عن إرادته طوال حياته بسبب تخمين وهمي؟

تُضيف ابتسام إلى الأوراق المطبوعة مجلات وجرائد، فأعود مرغما إلى متابعة الأخبار الطبية المنشورة هنا وهناك:

"يَبدأ المرض أحيانا في جسم أحد الأشخاص ولا يخرج أبدا، يذهب معه إلى القبر، ثم يموت مريض السرطان المحتمل لأي سبب آخر".

"شرائح اللحم الأحمر تزيد من الإصابة، أما الأسماك فهي مُغذية أكثر، لكن لا دليل مؤكد على أنها تقي من الإصابة، مرة واحدة قرأتُ معلومة تقول أن زيت سمك القد يُحجِّم من انتشار الخلايا المصابة في جسم المريض، لم يدعم تلك المعلومة أي مصدر علمي".

"عندما يكون العقل مفعما بالأمل يقاوم الخلايا الشاذة ويدحرها، العقل؟ لا يوجد عضو في الجسم اسمه العقل، هو معادل نظري للمخ، والمخ مصاب أصلا".

"يؤثر سرطان المُخ على مراكز التذكر، وربما يلغيها تماما".

وهنا مربط الفرس، يؤثر سرطان المخ على مراكز التذكر، وربما يلغيها تماما، هل قلت الجملة مرة واحدة أم مرتين، هل قلت مرتين؟

***

انقطعت ابتسام عن العالم الخارجي وأصبحتُ شاغلها الشاغل، حاولت أن تُخفف عني الآثار النفسية، أما الآثار التي تحتاج للطب فالمستشفيات كفيلة بها، لم تعد تبعث برسائل الأخبار المترجمة عبر الإنترنت، فتوقف راتبها لمدة شهرين.

لم يتوقف المطر لساعتين متواصلتين، الجو دافئ لكنني أشعر برعشة تنفض بدني، لا أعرف هل استمرار الرعشة يدفئني أم أنها مقدمات لدور برد؟

عدت أثق أكثر بالفيتامينات الموجودة في الصيدليات، واصلتُ البحث من جديد في أوراق ابتسام المطبوعة من جوجل، عندما قرأت النشرات الطبية المتنوعة لعدة ساعات اكتشفت شيئا عجيبا، أنني ازددت جهلا بمرضي، فقد أشارت بعض النشرات إلى وجوب الاهتمام بالنظام الغذائي، وقالت تقارير أخرى إن الرياضة هي الواقي الأكبر، وأحالت بعض دراسات أجنبية المرض إلى عوامل وراثية لا يد للإنسان فيها، أصبح الموضوع برمته غامضا، مات خالي عن أربعة وثمانين عاما، كان يدخن منذ سن الرابعة عشرة، سبعون عاما، مدخنة قائمة بذاتها ولم يصب بسرطان الرئة، طريق صحراوي من القاهرة إلى الإسكندرية مفروش

بنسجائر، قضى في سريره كأي شخص ملتزم يمارس الرياضة بانتظام ويشرب الحليب قبل النوم. عندما استفسرتُ من طبيب المستشفى الجامعي عن هذا الأمر قال: "طبيعي جدا أن يدخن إنسان طيلة حياته ولا يصيبه السرطان، أستاذ مصطفى الإصابة بالسرطان هي الاستثناء وليست القاعدة". وأدركتُ شيئا مهما، إضافة لقب جديد، أصبحتُ استثناءا.

قرأتُ في أحد التقارير أن الأطعمة التي تحتوي على ألياف تشق طريقها في الجهاز الهضمي وتكنس البكتيريا الضارة، ما علاقة كل هذا بالمخ؟

جاءت ابتسام ذات صباح محملة بالجرائد وبعض أنباء قالت إنها موثوق بها، المعهد الوطني للسرطان، يذيع نشرة غذائية يومية، برنامج مدته خمس دقائق، حَرِصَتْ على ترجمة النصائح الطبية من اللغة الإنجليزية، ثم إعادة كتابتها بالعربية على اللاب توب، تناول عدد كبير من الفاكهة سيجعل احتمالات الإصابة بالمرض ضعيفة، وكذلك الخضروات التي تحتوي على ألياف، بدأت ابتسام تدوّن الأصناف التي يوصي المعهد الوطني بتناولها للتخفيف من انتشار المرض، الاستفادة من هذه المُقترحات تغذي فكرة العودة للطبيعة، تعد مثل هذه الأفكار ملاذا مناسبا وآمنا، لكنه مؤقت.

بعد عدة أيام اكتشفنا مشكلتين، الأولى أن جدولنا الغذائي الذي أرهقنا في جمعه لا جدوى منه، فجميع الإرشادات الطبية التي دونتها ابتسام لم تكن موجهة لمن أصيبوا بالفعل، بل لأشخاص أصحاء لم ينل منهم المرض بعد، وأن الإرشادات الطبية وقاية وليست علاجا، أما المشكلة الثانية فهي عدم إتقاننا الترجمة من الإنجليزية إلى العربية،

فكنا نتوقف أحيانا أمام النصيحة الطبية، لا نعرف ما يجب علينا فعله. التعريف الذي تُفضله ابتسام واجهة اجتماعية لها "مترجمة"، ورغم ذلك فكل تحصيلها من الترجمة لا يتعدى بعض تقارير عن أفلام تسجيلية محلية أو معلومات إخبارية سريعة وأغلب شغلها على الإنترنت كان عبر استخدام قواميس إكسفورد.

أنسى ابتسام النائمة، أنساها تماما، أنظر إلى القمر كنافذة صغيرة تدور فيها أفكاري، تجري الدنيا أمامي وأنا واقف أراقب شيئا لا يشغل غيري، تفاصيل تمر في بلادة وبطء، أعود صغيرا، بالكاد أستوعب ما أسمعه، أنصت إلى الكلام وأفسره بطريقتي الخاصة، لا أعرف فرقا واضحا بين الساعة السابعة والحادية عشرة، ولا بين صباح الخميس ومساء الأحد، فقط كانت تحدث لي أشياء لا يليق عليها إلا هذا الاسم "أشياء" مكتفية بذاتها، لا تنتظر مني شهادة ميلاد، كان الزمن سائلا يتدفق، والليل يقضي عليه الصباح في ثانية واحدة، بغمضة عين.

سأذهب إلى المستشفى الخاص الذي اقترحته ابتسام وأنا غير متزن، لم أنم جيدا، بل لم أنم أصلا، الصبح طلع والمطر خفّ، الضوء شتت تركيزي.

لا أريد أن أوقظ ابتسام، يكفيها ما حدث ليلة أمس، حاولت أن أمسك القلم وأكتب، كانت تعرف أنني أحلم بكتابة رواية كاملة ونشرها، أمسكت دفتري الذي رسمت فيه الخطة، الشخصيات والأحداث، الأجواء والأسلوب، وفيما القلم يجري ويصنع على الورق حياة جديدة توقف فجأة، شعرت بصداع لا يطاق، ألم يزداد وشواكيش تدق، لم يكن

صداعا بالمعنى المعروف، خلا إحساسي من كل شيء عدا الألم، لا أعرف كيف تصرفت ابتسام، بعد أن عاد إليّ تدريجيا هدوئي جلستْ قبالتي، رفعت جريدة من فوق المنضدة، ثم فتحتها وقالت:

"الحل هنا يا مصطفى".

ألتقطُ منها الجريدة وأنظر إلى الخبر الذي أشارت إليه، كان نعيا في نصف صفحة، وبجواره صورة، هي صورته، بهيئته المعتادة، بدلة وكرافتة وطلّة واثقة، الفرق الوحيد أنه حلق شاربه، أصبح شبيها بالانجليز، محمود، مازلت أعرفه جيدا رغم مرور كل هذه السنوات، النعي باسم الحاج سعيد العراقي، بجوار صورته معلومات لا علاقة لها بالمتوفى، تُفيد بأن محمود عاد من انجلترا وافتتح مستشفى خاصا بمصر الجديدة، تاريخ الجريدة مضت عليه خمسة أيام، كان العزاء منذ يومين، لو لجأت إليه حسب نصيحة ابتسام فيجب أن أذهب غدا، ربما يعتقني محمود العراقي من زيارات المستشفى الجامعي.

هل سأقابل هناك شخصا مثل الأستاذ نسيم؟ يُهيّأ لي أن لكل مكان الأستاذ نسيم الخاص به، موظف الاستقبال بالمستشفى الجامعي، منذ أسبوع عرضتُ عليه أوراق التحاليل للموافقة على إجراء العملية، ذلك قبل تراجعي بسبب خوفي الشديد، لم أقل لابتسام إنني خائف، قلت لها إنني متريث، متأنٍّ، أراجع نفسي، أرتب أوراقي، أغلب الكلمات تخفي الحقيقة ولا تظهرها، سألني الأستاذ نسيم وهو يؤكد على بياناتي:

"العنوان في البطاقة لا يزال هو نفس العنوان؟".

أهز رأسي بالإيجاب.

"والزوجة؟".

أهز رأسي بالإيجاب.

"والأولاد؟".

لا أهز رأسي. فيترك الخانة خاوية.

ينتقل الأستاذ نسيم لنوع آخر من الأسئلة:

"آخر مرة أجريت فيها تحليل دم؟".

"منذ أسبوعين تقريبا".

"آخر مرة تعاطيت فيها مضادا حيويا؟".

"لا أتذكر.

"هل تتعاطى مخدرات؟".

"نعم".

يُخرج ورقة من درج مكتبه:

"في حالة (...) من علينا إخباره وتسليمه متعلقاتك؟".

كنتُ أرغب في التوقيع على هذه الورقة الأخيرة وهي بين أوراق كثيرة، دون أن أعرف محتواها.

ملأ نور الشمس الأرض، بدد كائناتي المُتخيلة التي تزورني أثناء الليل.

وفكرت في إيقاظ ابتسام.

3

الشُرُوق

ارتفعت الشـمس خلف الستائر بعد إغماضة عين طويلة، هل راحت عليّ نومة؟ أتحسـس ملاءة السـرير، كيف نمتُ بهذه السـهولة؟ مواصلة الحياة تحتاج لبعض التغاضي عن معرفة الأسباب.

في الصباح، اتخذتْ الشقة شكلًا وهيئةً على غير عادتها، لم تعد كما كانت بالأمس، أبطال الحكايات يحضرون أو يغيبون في الذاكرة حسـب حاجتي إليهم، تقترب ابتسام مني وهي تتمطّع:

"الليلة كلها قضيتها في البلكون يا مصطفى؟".

لُغة استفسارها رقيقة كعادتها:

"كنتُ أسلي نفسي كي تستطيعي فَرْد ظهرك براحتك".

اكتفيت بهذه الكلمات، لم أقل لها ما وددتُ قوله.

عـدت إلى هوايتي التي تعلمتها حديثًا، الرسـم، أمامي بعض خطوط سوداء لوجوه لم تكتمل، مجرد تصورات أولية مُتخيلة:

"ما رأيكِ في رسوماتي؟".

ترد ابتسام وهي ترفع الصينية بشاي الأمس:

"منذ متى وأنت ترسم يا مصطفى؟".

أُدوِّر كلامها في رأسي مدة طويلة، أبحث عن رد:

"منذ تأكدت من أن الكلمات وحدها لا تكفي".

تنزل الصينية عن يدها وتتأمل الوجوه المرسومة:

"تحتاج رسوماتك فقط إلى بعض الوضوح".

أرشف من كوبي وأحدد نسبة السكر:

"إنه مجرد خيال. يحضر ويهرب".

تردّ ابتسام وهي تقضم عود بقسماط ببطء:

"نُحبّ الخيال لأننا لا نُحاسَب على تجاوزاته".

لم تنتظر ردي على ملاحظتها، تذهب إلى المطبخ وتخرج بالجريدة والشاي الجديد، تقلّب الصفحات حتى تصل لخبر معين، تضع إصبعها عليه:

"هذا هو العنوان. احفظه جيدا".

لم يكن ينقصها إلا أن تعلق ورقة بالعنوان في رقبتي كي لا أتوه، تُقرب الصفحة المعنية من عينها، تحجب الأخبار والصور في الجريدة رأسها ونصفها الأعلى، تقول:

"فور انتهاء الفحص لابدّ أن تتصل بي".

"أكيد".

"لا تنس".

"حاضر".

أحضـرتُ حقيبة صغيرة ووضعت فيها الأشـعات والتحاليل وأوراق جوجـل، النسـب والتقديرات الطبية السـابقة، عدد الجلسـات وأسـماء العيادات والمستشفيات التي ترددتُ عليها في الأشهر الخمسة الماضية، أنظـر لـلأوراق وأنـا أفكر فيمـا سـأقوله للدكتـور محمود اليـوم، أخمن الأسئلة دون أن أتكلـم، مصنـع الكلمات لا يتوقف في رأسـي، ومصنع الأكاذيب أيضا.

حملتُ الحقيبة، خطفت من ابتسام قُبلة وخرجت.

خُيـل إليّ أنني لم أغادر الشـقة منـذ زمن طويل، توقفت السـماء عن إرسـال جُندها، الشـوارع مبلولة وهادئة، وصلت إلـى مصر الجديدة في وقت قياسـي مقارنة بحالة الجو، لم أتذكر شـيئا عن الشوارع التي مررت بها.

عندما وصلت إلى بوابة المستشـفى كان محمـود بانتظاري، لم يتغير كثيـرا، أصبح بدينا عن ذي قبل بشـكل ملحوظ، السـالفان طويلان على الطريقة الإنجليزية، مددتُ يدي لمصافحته فأخذني بالأحضان، تناسبت حرارة لقائه مع سنوات طويلة من الغياب:

"حمدا لله على السلامة يا دكتور".

وضع يده على كتفي، دخلنا إلى مكتبه:

"دكتور؟"

تجاذبنا أطراف الحديث أثناء الدخول:

"أنت الآن دكتور".

"أنا محمود قبل ذلك بكثير، نحن أصدقاء قبل أن أصبح دكتورا".

طلب له شايا أخضر ولي قهوة، لا يزال يتذكر أنني أشربها زيادة، وهو كما اعتدتُ، يخاف على صحته جدا:

"أنا في حيرة كبيرة يا محمود".

مدة طويلة مرَّتْ قبل أن يرد:

"لا تقلق".

فضلتُ أن أدخل إلى موضوعي مباشرة بلا لفّ أو دوران، رفعت حقيبة أوراقي ووضعتها فوق المكتب، فتحها وأخرج ما بها من أوراق وأشعات، بقلم أحمر رسم دوائر حول بعض الكلمات في تقرير التحاليل، ثم رشق الأشعة في برواز مضيء بجواره وتأملها، هز رأسه مرارا ثم وضع الأوراق في الحقيبة كما كانت:

"الورم حجمه كبير يا مصطفى".

أبحث عن الكلمات:

"أنا مُشوّش يا محمود. لا يعطيني التركيز في شيء إلا مزيدا من النسيان. ذكرياتي أصبحت عبئا عليّ، أشعر أنني أصبحت ضيفا غريبا على جسدي، ضيفا غير مرغوب فيه يحاول طوال الوقت إثبات أحقيته في المشاركة. سأحتاج لعملية أليس كذلك؟".

يهزّ رأسه بالإيجاب دون كلام.

"سأنسى في حال نجاحها؟".

"تنسى؟".

"أنساك مثلا. وفي حال فشلها سأموت. أليس كذلك؟".

يترك محمود كرسيه ويلفّ حول المكتب عاقدا ذراعيه للخلف:

"لا أحد يستطيع تخمين شيء بخصوص هذا الأمر".

"ألست جرّاحا وتعرف؟".

"الجرّاح لا يعرف كل شيء. لكن ما يتضح أمامي في أوراقك أن الورم قريب من مراكز النطق".

"النطق؟".

لم يعجبني الحديث المتواصل عن النظرية الطبية، استوقفتني بعضُ الكلمات:

"هناك أشياء يجب أن نتخطى الحديث عنها بأسرع ما يمكن".

فكرتُ طويلا في ما يمكن أن تفعله الكلمات، ولم أتكلم، تركته يسترسل دون مقاطعة:

"كل يوم يمر ليس في صالحك. يُفضَّل أن نبدأ بشكل عملي في أقرب وقت".

"شكل عملي. أقرب وقت؟".

أردد ما يقوله محمود، كشخص ساذج ليس على مستوى الكفاءة في الحوار.

"الموضوع يحتاج إلى تفاصيل كثيرة. عندما يحين وقته سأشرحه لك بوضوح. المهم نبدأ. والآن".

يقول محمود ثم يضغط زرا فيدخل شخص ويقف أمام المكتب، يكتب ورقة ويعطيها له، أخرجُ مع الشخص والورقة، ساعتان قضيتهما ما بين الدخول في أجهزة وسحب عينات، خلعتُ ملابسي في كشك زجاجي صغير وارتديتُ "روب" أخضر خفيفا، ثلاث مرات نمتُ فيها على لسان يمكنه أن يحمل إنسانا، يخرج من دولاب يشبه غسالة أتوماتيك عملاقة.

عدتُ إلى محمود منهكا، شربنا عصيرا وتحدثنا عن أمور حياتية ليس لها علاقة بالطب والمرض، بعد قليل دخل الشخص ومعه أوراق أخرى، وضعها على المكتب وانصرف، تأمل محمود الأوراق وأضاء مصباح الأشعة، أخذ شهيقا عميقا وزفره ببطء:

"مثلما توقعتُ. لابد أن ندخل عمليات في أقرب وقت".

ثم أضاف قبل أي رد فعل مني:

"سيكون ذلك أفضل".

"ولماذا التسرع؟".

"استمرارك في أخذ جرعات محلول الكيماوي لشهرين آخرين سيؤثر على العمود الفقري".

"متى يجب أن ندخل عمليات؟".

"تقديري بعد ثلاثة أيام على الأكثر".

"ثلاثة أيام؟".

يغلق جفنيه على كلماتي.

"لي طلب واحد".

"تأمر يا مصطفى".

"أقضي هذه الأيام الثلاثة في مكان قريب من هنا".

شكّلت ملامحه علامة تعجب دون كلام.

"أريد أن أبقى وحدي لثلاثة أيام، فندق صغير بجوار المستشفى مثلا، سأكون أفضل لو أُتيح لي ذلك".

يهز سبابته أمام شفتيه:

"ولماذا فندق؟ توجد بالمستشفى خدمة الإقامة، سأحجز لك غرفة لمدة ثلاثة أيام، فرصة نُجري خلالها الفحوصات الطبية اللازمة".

يضغط محمود زرا فيدخل شخص آخر، يقف كالتمثال ينتظر الأوامر:

"احجز غرفة لمدة ثلاثة أيام باسم الأستاذ مصطفى إبراهيم سيد البحيري، تبدأ من صباح الغد".

يهز الرجل رأسه ويخرج، ألتفتُ إلى محمود:

"أريد أن أعرف التكاليف".

يضحك محمود، المرة الأولى التي يضحك منذ أن قابلته:

"بعد أن تخرج سالما سأحاسبك على جميع الفواتير".

يضحك مرة أخرى، يضع يده على كتفي:

"يُفضل ألا تقود السيارة وأنت وحدك".

تعرضّ ابتسامتي أكثر:

"أنا وحدي ولكن ليس لديَّ سيارة".

أصافحه وأنصرف.

في طريق العودة إلى البيت أفكر بطريقة غير التي فكرتُ بها أثناء مجيئي.

حكيت لابتسام ما حدث، فتظاهرت أنها غير مُهتمة بكلام محمود وقالت:

"يمكن خير".

"خير؟".

"إنه صديقك ولن يخدعك".

أوراق جوجل مُبعثرة على المنضدة، سحبتُ عينة عشوائية، قرأتُ:

"تصميم الأوعية الدموية هو الذي يحدد موضع انتشار السرطان".

كلمة "تصميم" لم تكن مُريحة، لا يد لي فيها، لكن يبدو أن بعض الخلايا تمثل أدوار شياطين صغيرة متمردة، ترفض الانصياع لأوامر

الملائكة الخاملين، تنتفض الكرات الحمراء والبيضاء صانعة لنفسها مستقبلا مختلفا، في الغالب؛ تنجح في التأثير على جميع الأعضاء الأخرى، تفسد عليها طيبتها، تُحدد الخلايا المريضة العضو المناسب الذي يمكن أن تزدهر فيه، لو انسدت الطرق لسرطان المثانة تقطع الخلايا النشطة رحلة فلكية عبر شعيرات دقيقة لتصل إلى الدماغ، ويحدث أثناء ذلك أن تكون الخلايا السليمة مضيافة، لا ترد الغزاة مكسوري الخاطر، تفسح لهم مكانا يبدأ بترحاب وينتهي بتواطؤ.

هل أصبحتُ أفكر كخلية سرطانية؟

هدأتْ أنفاسي قليلا، وعدتُ أكثر ميلا للانتظام في أداء الصلاة.

***

في الصباح التالي غيرت ملابسي ولمّعتُ حذائي، تأملت تفاصيل الشقة، أركانها وسقفها وبلاطات الأرضية، في المطبخ أدمت النظر إلى القدور والأواني والملاعق، توقفت عند النافذة الألوميتال الصغيرة، هل أغلقها أم أتركها مواربة كي لا تكتم الشقة؟ قفلتها بعد دقائق وأغلقت مفاتيح البوتاجاز، كل شيء أصبح يستغرق وقتا أطول، لا أدري هل أكّدت على المفاتيح مرة واحدة أم مرتين؟ في المرة الثانية كانت مُحكمة الإغلاق، أطفأت مصابيح الإضاءة ووضعت سلسلة مفاتيحي في جيب الجاكيت، سحبت حقيبتي الكبيرة ذات العجلتين، وعلّقت سير الحقيبة الشخصية على كتفي.

"سَرِّحْ شعرك".

أسحبُ مشطا خشبيا من درج الكومدينو، أمرره على شعري أي كلام وأنا سارح، أستجدي منها إعجابا ما:

"تمام يا ابتسام؟".

"تمام يا مصطفى".

تضحك.

"لـن أعـود إلى هنا مرة أخرى إلا بعد إجـراء الترميمات اللازمة في رأسي".

جُملة تكوّنتْ بالداخل ولم يلفظها لساني.

خلعتْ ابتسـام خفيهـا وبدلتهما بحـذاء مُبالغ في ارتفـاع كعبه، بدت طولي تقريبا، حملتْ مظلتها المتربة، كانت مُعلقة على مسمار فوق عداد الكهرباء، نفضتها وجربت فتحها وغلقها مرتين.

قبل أن نخرج أسـمع الجرس، كنت بجـوار الباب، فتحت دون النظر من العين السحرية:

"حسناء"

ارتمـت في حضني قبل أن تصافح ابتسـام، وفي يدها تجر طفلا يليق أن يكون حفيدها، أختي في الثالثة والأربعين، ومصطفى في الخامسة.

"إلى أين كنتما ذاهبين"

ترد ابتسام:

"إلى المستشفى"

وتحمس معنا بذلك عن تأجيل مشواري، واستعدادي لمضايفتها في بعض الوقت.

"جئت لأطمئن عليك يا مصطفى. وجئت بمصطفى معي ليرى خاله. سنقدم أوراقه في مدرسة القديس يوسف بعد عدة أشهر".

يقترب الولد مني. أتأمل ملامحه وأتذكر، منذ ست سنوات خلت كانت أختي قد ملت من التردد على العيادات الطبية ومعامل التحاليل. زوجها صديقي الطيب: رضي بنصيبه في أن يعيش مع حسناء دون إنجاب، لولا محاولتي الوحيدة منذ ست سنوات، ذهبتُ إلى طبيبة متخصصة في الولادة والعقم. جلستُ أنتظر دوري بين نساء حوامل، زوجات صغيرات يثرثرن، أستمع لحكايات متفرقة عن اللوالب والحُقن التي تُعطى في الكتف لمنع الحمل. أخرج لأشم هواءً ليس نسائيا وأشرب عصيرا ثم أعود، أظفر ببعض حكايات أخرى من نساء أخريات. عندما يأتي دوري في الدخول تتوجس الممرضة مني. فأنا الرجل الوحيد في العيادة، الرجل الوحيد الذي سدد قيمة كشف أمراض نساء، تدخل معي وتترك الباب مفتوحا، حكيتُ للطبيبة حكاية حسناء: "أختي لا تنجب، أو زوجها هو الذي لا ينجب. لا أدري. أريد مساعدتها"، تديم الطبيبة النظر في عيني طويلا قبل أن تقول: "لا يمكن فعل ذلك في مثل هذه الأيام يا أستاذ.." وتنظر في ورقة الكشف: "يا أستاذ مصطفى" أرفع كتفيَّ، أمط شفتيَّ ولا أرد، فتقول: "بالطبع لن يمكنك مساعدتها إلا بأن تحضرها إليَّ لأقوم بالكشف عليها. فلا يمكنني الكشف عليك أنت" تضحك، أخرج. في اليوم التالي أصطحب حسناء وزوجها

فاروق إلى العيادة نفسها، حسناء كسول بدينة في السابعة والثلاثين، وزوجها فاروق في نفس سني، رجل أعمال صغير بجسم بدين وقلب يرتجف كلما تأتي سيرة مال يتوقع خسارته. كانت حسناء متشجعة أكثر منه قليلا على بدء المغامرة. وبدأت التعليمات الطبية، حبوب في شريط مستدير ملون، وجدول صارم للمعاشرة الزوجية بينهما. بعد ثلاثة أشهر من تناول الأدوية ووضع البذور بانتظام جاءت النتيجة مبشرة. ذهبتُ ذات مساء مع حسناء لإجراء التحليل الشهري الاعتيادي، فقالت لها الطبيبة الجملة التي انتظرتها خمسة عشر عاما: "أنتِ حامل يا مدام حسناء"، تبدّد عجزُها وكسلها فجأة، قامت وأسندت يديها مجتمعتين على المكتب المعدني، أطاحت يدها دون قصد ببعض الأوراق بسبب انفعالها، ثم خرج منها صوت مجروح بالكاد سمعته: "حامل"، خرجنا واحتفلنا، لم ننم في تلك الليلة، ولأول مرة أراها تكاد ترقص من فرط الفرحة. أصبحتُ منذ تلك اللحظة مرتبطا ارتباطا وثيقا بابن أختي، كأني أنا الذي أنجبته. بعد ذلك بعدة أشهر، وبعد أن أنجبت حسناء وهزَّت حلمها في الغربال، ذهبتُ أنا وابتسام للطبيبة نفسها، وفعلنا الخطوات نفسها، شريط الحبوب المستدير الملون، والجدول الصارم في المعاشرة الزوجية، لكن الطبيبة لم تقل لابتسام: "أنتِ حامل يا مدام ابتسام" ولم تهز ابتسام حلمها في الغربال.

كان غريبا أن أربط بين حسناء وابتسام، هل كنت سأفكر بالطريقة نفسها لو لم أرَ حسناء هذا الصباح.

شردتُ طويلا لدرجة أن ابتسام أحضرت فطورا معتبرا وأنا سارح، أثناء شُرب الشاي تجاذبت أختي الوحيدة أطراف الحديث معي:

"شعوري نحوك شديد القوة. الولد مصطفى متعب جدا".

تجذب يديه بشدة نظرة خائفة.

"وفاروق أيضا. متقلب المزاج ويحتاج دائما لمن يخدمه. هددني كي أترك البيت نهائيا".

كنت مقتنعا بأن الحياة لا تريح أحدا. فاروق أهم شيء عنده جمع المال، وهو يشعر بأنه ذهب عقلا أصبح في الخامسة، وهذه نعمة كبيرة تتمثل في حياته حزمة من النعم. يجري الصفقات بشكل محترف، يضرب الكرة فتذهب بعيدا وتحقق له أموالا إضافية، ثم لا يهدأ بعد ذلك. يذهب إليها ويضربها ثانية، وثالثة وعاشرة. ستنتهي حياته وهو يحاول ضرب الكرة. أتخيله عندما تعافر روحه في حلقومه، سيهتم بجمع حفنة أخرى ليحرز بالكرة هدفا جديدا.

"ألف سلامة عليك يا مصطفى".

كنت قد قرأت في كتاب ما أن أربعة أخماس العمر تضيع في تكرار ما فعلناه أو قلناه من قبل، ومن هذه التكرارات كلمات المناسبات، "ألف سلامة عليك" تصلح مع دور أنفلوانزا، وتصلح مع السرطان، أحيانا تصبح الكلمات على قدر كبير من الارتجال.

"أنا بخير يا حسناء. أخشى فقط أن أنساكِ، أو أنسى مصطفى وفاروق".

تنظر إليّ جيدا، يبدو من نظراتها أنها لم تكن تعرف طبيعة مرضي.

"أبوك لم ينسَ شيئا يا مصطفى. كان فقط لا يتكلم كثيرا".

"ربما لم يكن يتكلم كثيرا لأنه ينسى الكلام. وهذا ما أخشاه يا حسناء".

تقترب ابتسام منّي وتهمس في أذني:

"ميعاد المستشفى".

تقول حسناء وهي تلعب في شعر مصطفى:

"سأزورك مرة أخرى هُنا. لا أحب الذهاب للمستشفيات، رائحتها تقبضني".

تسحب مصطفى في يدها وتترك على كنبة الأنتريه ثلاثة أكياس فاكهة وورقة نقود مطوية، تدس ابتسام ورقة النقود بأطراف أصابعها تحت المخدة وتضع الفاكهة في الثلاجة، ثم نخرج بعد قليل.

كانت الشخصيات تعبرني، ولا تختمر الأحداث طويلا في رأسي لتنتج معنى معينا.

في التاكسي يطوينا الصمت طوال الطريق، نتأمل الشارع المؤدي إلى المستشفى، نتوقف أمام البوابة قليلا ثم نعبرها معًا، ندخل أنا وهي دون ترتيب مسبق للكلمات، لما انفكّت عقدة لساني قلت:

"اليوم ستبدأ المغامرة".

تبتسم ولا ترد، ثم بعد فترة ترد:

"لا تهوِّل الأشياء".

نجتـاز ممـرا طويلا، تغيب الشـمس ويغيم الأفق، تفتح ابتسـام مظلتها عندما تسقط قطرات خفيفة وتبلل ملابسنا، يشتد المطر فأدخل معها تحت المظلة، ألتصق بها، كان شعورا مطمئنا وجميلا، بدأتُ في فتح موضوعات متفرقة، تسـألني وأجيب، المطر ينقر مظلتها بنغم ثابت، أنتقي كلماتها من بين ضرب القطرات للقماشة الساتان المشدودة فوق رأسينا. هزت المظلة لتنفـض عنها الماء، الأرض مبتلـة ولامعة، والبالطو الذي أرتديه تفوح منه رائحة النفتالين.

نمر بنافورة لم يكتمل بناؤها، ثم نعبر سورا كبيرا.. مبنيًّا من دبش قديم، يشـبه تلك الصخور التي بُنيت منها المسـاجد الأثرية، السور منفصل ولا علاقة له بمبنى المستشفى الحديث، لم أفكر طويلا في تفسير لذلك.

نصل إلى حديقة صغيرة، وقبل أن نجتازها يقترب منا رجل لا أعرفه، يبدو من تركيزه في ملامحي أنه يعرفني:

"حضرتك الأستاذ مصطفى البحيري؟".

أتأمله جيدًا، نظرة خاطفة يصوّبها إلى ابتسام ثم يعود للكلام:

"الدكتور محمود ترك معي مفاتيح الغرفة. وسيأتي هو بعد قليل".

أهز رأسـي لمدة طويلة دون داعٍ، يتقدمنا الرجل كمرشد سياحي، كل بضع ثوانٍ يفرد ذراعه أمامنا بـود وترحاب، يظل على هـذه الحال حتى نصل إلى الغرفة المحجوزة، نعبر جنينة صغيرة بها أشجار برتقال وأرض طرية، يفتح باب الغرفة ويسلمني المفتاح:

"منذ متى والمفتاح معك؟".

"منذ ساعتين".

قالها بتحفّز، كأنه ينتظر مني هذا السؤال، صمتنا لفترة طويلة.

"خدمة ثانية يا أستاذ؟".

تدق الدماء في دماغي ولا أرد، ينصرف الرجل.

أتوقف وفي يدي المفاتيح، أنظر إلى ابتسام وأبحث عن الكلمات:

"المرض يهجم عليّ".

تبتسم ولا تتكلم، تلتمع عينها بسائل رومانسي شفاف:

"لا أعرف هل يريد أن يفترسني أم يأخذني بالأحضان يا ابتسام".

لا ترد أيضًا، أطوق عنقها بذراعي وندخل.

يد تنقر كتفي قبل أن أعبر عتبة الغرفة:

"محمود".

"مصطفى".

يصافح ابتسـام ولا ينظر إليها، يفرك كفيه كأنه يغسلهما، حركة يفعلها الأطباء دائما بلا تبرير، ثم يتحدث إليّ:

"هـذه غرفتك يا بطل. سـننتهز فرصة تواجدك معنـا لإجراء تحاليل وأشعات جديدة".

تخيلت أنه قال هذه الجملة من قبل، كان يحافظ على ابتسـامته طوال الحديث، يدخل معنا الغرفة ويجلس، يديم النظر لحقيبتي:

"هل بها أدوية؟".

ابتسام تتابع الكلام بشغف، لا أتذكر إن كنت قد قلت لها إنني أتعاطى الحشيش أم لا، تقريبا لم تكن تعرف، خمنت ذلك من خلال نظراتها، لم أستطع الفصل في كلامه بين المجاملات والحقائق الطبية، الذكريات القديمة تحكمت في الإحساس بالمعاني الجديدة.

محمود يوزع نظراته علينا أثناء الحديث، تُهت من كلامه ولم أعد أستطيع التركيز في كل ما يقول، ألح عليّ خاطر، أن أترك المستشفى الآن، بالفعل؛ بدأت أتساءل، أين الطريق إلى بوابة الخروج؟ سأتنازل عن شنطة الأدوية كلها، أترك الجميع وأستعيد ذاتي القديمة، أتمشى بعيدا على شاطئ له ذكرى مهمة لا تُنسى، أعود لأفكاري وطريقة حياتي قبل خمسة أشهر، يعود تدريجيا صوت محمود، يختفي خاطر الهروب من المستشفى سريعا كما برق سريعا، وعدتُ أفكر بطريقة دبلوماسية لائقة.

"يا مرحب. أهلا وسهلا".

يتجه إلى باب الغرفة، يقول بطريقة من يريد أن ينصرف:

"سأمر عليك غدا".

يخرج محمود ويغلق الباب من خلفه، يختفي سريعا بين أشجار البرتقال.

***

غرفتـي الجديـدة صغيرة ومرتبة، بها سـرير وكرسـي فوتيـه، تغطس ابتسـام في الكرسي وتتكوّر على نفسـها، تدق سيراميك الأرضية بكعب حذائها في نقرات مُنغّمة ومنتظمة، يذكرها الحذاء بشيء ما فتخلعه، تبقى بجـورب نايلون خفيف، سـرعان ما تخلعه هو الآخـر، ترفع قدميها فوق منضدة مسـتديرة تتوسط السرير والفوتيه، ينزلق الفستان فيكشف ساقيها الشـمعيتين، كأننـي لأول مرة أنتبه لجمالهما، عشـرون عامًا كان يمكنني خلالها رؤيتهما، هل حرمتُ نفسـي من تلك المتعة، أم رأيتهما كثيرا من قبل ونسـيت، هـل بدأت خلايا ذاكرتـي في الوهن مبكرا؟ غلبني شـعور طاغٍ بالرغبـة فـي النوم، بنـج يتخفى في هيئة نعاس. تهز ابتسـام سـاقيها وينحسر الفستان المشجّر أكثر، كلما تهتز ينزلق، ترتعش وروده الحمراء وتتبدّل ألوانه حسب اتجاه الضوء.

كنـتُ شـبه نائـم على السـرير الصغيـر الـذي يكفي شـخصا واحدا، قدمـاي لا تـزالان داخـل الحـذاء، أعتدل وأجلـس أمامها، تُنـزل قدميها مـن فـوق المنضـدة المسـتديرة، تُقربهما من قدمـيَّ، لا أتجـاوب معها، لا أعرف هل أمر بلحظة شـرود أم أنني نسـيت ما يجب عليّ فعله؟ تنزلق ببـطء ونعومة تحـت المنضدة، وبيديـن رقيقتين تخلع حذائـي، ثم تعود إلى مكانها، تضع قدميها فوق قدميَّ تحت المنضدة، ومن فوقها تمسك بكفي، أشعرُ بخدر يسري في فقرات ظهري وقفاي وركبتيَّ، قبّلتْ كفي، فقبّلتُ كفيها.

هدأت الريح قليلًا وسرى صوت خفيف كالنسيم، أدركتُ دون وعي مني أنني قابلتُ في ابتسام جانبا جديدا، رومانسيا بزيادة.

عادت تدوس برقة على أصابع قدمي:

"هل تتذكر ذلك اليوم؟".

تسألني، وأهز رأسي بالموافقة، تقول:

"المكان رائع ومنظر الغروب فوق أغصان البرتقال تحفة".

كنتُ أنتظر منها شيئا آخر. حدثتني عن أشياء كثيرة متفرقة لا رابط بينها، الألوان التي أحبها، الأفلام التي أفضل مشاهدتها، بعض ذكريات عابرة عن أيام زواجنا الأولى، لعبنا شطرنج وهزمتها مرتين، هل دبرتُ لتلك الهزيمة حتى تُظهرني قويًا أمام نفسي، ماذا يعني ذلك بالنسبة لرجل في السادسة والأربعين؟ لا أستطيع وضع هذه السن في خانة معينة، فلا أنا شاب ولا أنا مُسِن، أحيانًا يذوب الخط الفاصل بين المرحلتين، وأحيانًا يتضارب فينتج عن ذلك بعض تصرفات مرتبكة ومُخجلة.

ضغطتْ ابتسام قدميها فوق قدميَّ للمرة الثالثة:

"ألا تُذكرك هذه الحركة بشيء يا مصطفى؟".

خرج السؤال كأنه مدفع مصوّب بدقة إلى رجاحتي واتزاني، "تذكرك" كلمة خفيفة على اللسان لكنها تعني الكثير بالنسبة لي، وهل اضطررتُ للمجيء إلى هنا إلا بسبب الخوف من النسيان؟

أحاول إخفاء ما أفكر فيه بهز رأسي من جديد، لكن يبدو أنها كانت تريد سماع صوتي:

"بالفعل. تذكرني بأوقات جميلة".

واربتْ عينها بنصف إغماضة ناعمة:

"الأشياء الجميلة لم تتركنا بعد يا مصطفى. وإن كنا نتخيل دائمًا أننا تركناها".

وكان هذا مدفعًا آخر يُصوّب إليّ بالدقة نفسها، هل تعني ابتسام أن هناك احتمالا ولو ضعيفا أن تتركنا الأشياء الجميلة؟ مرت أمامي خيالات لبعض ذكريات متدفقة، غير مترابطة.

أسدلتْ الستائر فأظلمتْ الغرفة، أوقدت شمعة فبانت معالم الأشياء، علقت في شعرها وردة ثم طلعتْ فوق السرير، قالت برومانسية من الصعب تخطيها:

"اطلع".

فطلعتُ، وبجوارها نمت، بأطراف أصابعي أزحتُ شعرها خلف أذنها، ملَّستُ على حاجبيها بإبهاميَّ، حركة تعبر دائمًا عن احتياجي للأنثى.

قالت:

"هذا السرير لشخص واحد".

وأرد عليها:

"نعم. هو لشخص واحد".

تقول:

"لماذا تنام بجواري فتجعله لشخصين؟".

وأفهم الغرض دون تفكير طويل كعادتي في الأيام القليلة الماضية، تقول:

"بردانة".

أغطيها بجسدي، فنصبح شخصًا واحدًا.

يهتز السرير كمركب سارح في عرض البحر، المركب تضربه عاصفة.

أحاول أن أصنع الآن فريدتي، أرسمُ تفاصيلها في خيالي، كأعمى حاولتُ أن أكتفي بالخيال، تشكلت حياة داخلية لا علاقة لها بما يحدث بالخارج.

لم أفكر في الحُب، أفكر في حبي، حالتي الخاصة، طالما كنتُ أحتقر ما يُسمى بالحالة العامة، العزف الشخصي أهم من الآلة الموسيقية، نتلامس، نتعانق، في هذه اللحظات كان بإمكاني أن أمسك بالحياة، المادة الخام التي تتشكل منها الأرواح، أحشد التذكر، فيتكوم كله في اتجاه واحد، علاقات تتجاوز كل ما هو منطقي تختبئ فيّ، حَمَلتُها معي زمنا طويلا ولا أستطيع الاستغناء عنها.

في لمحة خاطفة تتحول الرومانسية الحالمة إلى خشونة جسدية، حرب يتفق طرفاها على إبرام معاهدة سلام بعد أن يهدأ غبار المعركة مباشرة، نسترخي، ننام قليلا، فيما أثر الحرب لا يزال يغمرنا.

هدّنا التعب وهدأنا، راحت تُغني "مصطفى يا مصطفى.. أنا أحبك يا مصطفى".

العلاقة بين الأشخاص تنمو داخل العقل أولا، قليل من الظن وكثير من الخيال، هذه هي المقادير بمنتهى البساطة، مقادير إحضار إنسان، لقد رأيتُ فريدة، رأيتها أكثر من مرة، أذناها مغرفتان صغيرتان، وفمها دبلة ذهبية، لها وجنتان ناعمتان، ملمس بشرتها خليط من الحرير والرخام، وقدماها معوجّتان بسبب تعلم المشي مبكرا، تكسر ما يقابلها من أكواب وتصطدم بما يصادفها من مقتنيات، تركب مشاية خشبية صنعها أبو مديحة النجار، تماما مثلما صنع واحدة لأبيها ذات زمن، عندما تتعثر في طرف السجادة وتقع ينحسر دانتيل فستانها القصير، فتحتكّ ركبتاها ببقايا المقرمشات ومكعبات البازل.

تركنا السرير الصغير الذي يكفي شخصًا واحدًا، فتحت ابتسام طبقًا مستديرًا به تشكيلة من الحلويات الشرقية، أكلتْ قطعتين من الهريسة التي تحبها، وأكلتُ أنا أيضًا، كان العسل السائل على شفتيها له لمعة مُغرية، قبّلتها قُبلة لها طعم البقاء، رغبة في الاستمرار تقاوم الزمن وترهلات الذاكرة. تغيرت أفكاري بشكل كبير، أصبحتُ منشغلًا بابتسام أكثر، بهتت أمامي صورة محمود العراقي، أصبح كيانًا شبحيًا لا يقوى على صمود التجسّد، فالعسل اللامع كان أكثر إغراء على الشفتين المشرقتين.

"يجتمع في عينيكِ الحزن والحنان".

تقول:

"في عيني أنا؟".

أقول:

"الحزن يدل على ما لم يتحقق في الحياة. بقايا أمانٍ مطمورة. أما الحنان ففيه كل الجمال الممكن. الحنان له ذراعان كالأشعة تخرجان وتحضناني. احتواء لا أستطيع رده أو حتى مناقشته".

تعلقتْ في رقبتي كطفلة كبيرة، نمنا على هذا الوضع لمدة ساعة، واستيقظنا عليه.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في محمود وأنا فوقها، برغم أنني حاولتُ الاندماج معها ونسيان أي شيء آخر، فإن محمود العراقي حضر بكامل هيئته، صنع له سجلًّا من خيال، كان قويًّا عندما استدعيته؛ لا ينقصه إلا شرايين يتدفق فيها الدم حتى يتجسَّد واقعا.

رفعتْ ابتسام الستائر كما أسدلتها منذ قليل.

خف المطر وجفت أرض الجنينة قليلًا، بساط أخضر من أوراق الأشجار يغوص في الطين، وسُحب وردية تتغير ألوانها في السماء. وقفنا قليلًا أمام الباب، نتأمل هامات الأشجار، باحثين عن الشمس والدفء، ثم دخلنا مرة أخرى بسبب البرد.

هندمت ملابسها، ضبطت مكياجها وارتدت حذاءها الذي جعلها أطول قليلًا:

"سأذكرك طوال مدة غيابك".

قالت ولم أسمع جيدًا، أستعيد الكلمات وأقلّبها في رأسي، هل قالت مدة غيابي أم مدة غيابك؟

بعض أغصان البرتقال مائلة على الباب الألوميتال بثمارها الناضجة، وسحابة رمادية تمر فوق رأسينا. جلسنا على كرسيين في الجنينة، قطرات طينية وقعت من الأغصان الخضراء فوق كتفي:

"ستكون على ما يُرام يا مصطفى. إن شاء الله ستكون على ما يُرام".

أهز رأسي لأنني لا أرغب في مواصلة الحديث.

أكلنا ما تبقى من الحلويات، علقت شنطتها على كتفها، قبلتني من خدي وعضَّت شحمة أذني برفق:

"أشوفك على خير. سأزورك مرة أخرى أكيد، وربما مرتين".

قالت ثم لوحت بيدها واختفت بين أشجار البرتقال.

دخلتُ إلى غرفتي مرة أخرى، سألتُ نفسي بعد أن بحثت عن هدوء روحي مُفتقد: هل جاءت ابتسام إلى هنا حقًا؟ هل جلست على كرسي الفوتيه وخلعت حذاءها وجوربها النايلون؟ لم أعد متأكدًا من شيء بشكل نهائي، أصبحتُ على قناعة شبه تامة بأنني قضيت ساعة من الخيال مع طيف أنثوي حالم رقيق، وأن زوجتي ابتسام لم تكن معي أصلًا.

***

لا أدري كيف غَفوتُ، أو بالأحرى لا أتذكر.

صداع شديد، ألم يضغط عنقي كأنه دُق بمسمار، وعمودي الفقري

حطبة متيبسة وباردة. تأملت المكان خارج النافذة الزجاجية، رائحة البرتقال فوّاحة، وثماره تتوهج كالمصابيح فوق الأغصان.

بعد صحياني انشغلتُ في ترتيب أمتعتي القليلة، أفرغتُ متعلقاتي الشخصية، رزمة ورق مُدبسة، مُصحف، أقلام من جميع الألوان والمقاسات تصلح للكتابة والرسم، مجلات قديمة، بعض القصص المترجمة، حكايات للأطفال ودواوين شعر، مفكرة صغيرة بها بعض الكلمات المعطرة بمسحوق ورد عتيق، أوراق قديمة خاصة بأبي، ماكينة حلاقته المعدنية وعباءة جوخ سوداء كان يرتديها في الليالى الشتوية، في أحد الجيوب الخارجية لحقيبتي وضعت سبرتاية صغيرة وفناجين قهوة وكيس بُن محوّج، بجوار الحقيبة الكبيرة ترقد واحدة أخرى صغيرة فيها اللاب توب وألبوم صور قديم، أول صورة فيه كانت لأبي بالأبيض والأسود أيام شبابه، يشبهنى جدا، لكني أكبر من الصورة قليلا. حول غرفتي صمت تام، أزيز خفيف لتروليات طبية بعيدة، أعداد قليلة من الممرضات، وأعداد أقل من المرضى وبعض عمال يتمشون ببطء، لا أعرف هل نزلاء المستشفى قليلون، أم أن الشتاء القارس هو الذي يبتلع كل أنواع النشاط والحركة، لمحت مريضين في البعيد، يلعبان تنس طاولة على منضدة خضراء. تنبعث موسيقى هادئة لا أستطيع تحديد مصدرها.

الفصُّ المجهول في مخي لا يستقر على حال، والمطر يسقط في الجنينة، فتأخذ الأرض زخرفها وتتزين على شكل عصفور مبلول، تخرج من جذوع أشجار البرتقال رائحة أعشاب بحرية. تخلد الأماكن في رأسي كأنها أبدية.

فـي مدخل الغرفة لمحت مرآة، وقفـت أمامها وحدقت فيها أكثر مما يجب، فتحت عيني على اتساعهما وكأنني أريد رؤية شيء أبعد من محيط الصورة المنعكسة أمامي.

ألفّ شـعر رأسي حول سبابتي، تنخلع بعض الشعيرات وتخرج في يدي، أتذكر مقولة لا أعرف من الذي قالها، إن الشخص المسموم ينخلع شعره بسهولة.

فى الآونة الأخيرة لم تعد ذاكرتي تقودني، أصبحت كحصان عجوز لا يُعـوَّل كثيـرا على قدراته، كل ما يقع من أحداث أنسـاه بسـرعة، عندما أفكـر فـي بياض شـعري وإمكانية صباغته؛ أنسـى ضرورة حشـو ضرس يؤلمنـي كل يـوم عنـد صحيانـي، وفي حـال تذكـري للاثنين معًا أنسـى شـحن الموبايل، وعندما أنشـغل بشـراء هدية لزوجتي في عيد ميلادها؛ كنت أنسى أن أفكر في المشكلة الأزلية التي لازمتنا منذ زمن، العجز عن إنجاب أطفال.

اخترعـت رمـوزا للأشـياء التي أنسـاها حتى لا أنسـاها، ولم يزدني ذلـك إلا إرهاقًا، فأصبحتُ مطالبًا بتذكر شـيئين بدلًا من واحد، كنتُ في الغالب أنسـى الشـيء ورمزه الـذي علّمته به. حاولـت أن أدرب ذاكرتي على الوصف المستمر لتكون مستعدة لمواجهة النسيان بشكل دائم.

غرفتي الجديدة المؤقتة لهـا باب ألوميتال فضي بأكرة خزفية، ونافذة وحيـدة مـن زجاج، تطل علـى جنينة صغيرة يلفها سـور تحوطه أشـجار برتقال محدودة، تتوسـطها شـجرة كافـور كبيرة، يتدلى منهـا مصباح في حجـم ثمـرة أنانـاس، الهواء بالخـارج شـديد، أخرجت يدي مـن الباب

لرجعي لأتبين سرعة تريح بتسريب التيار المندفع من بين أصابعي، تدفعني بعض الأفكار في صمت، عشرون عاما مرت على زواجي، ونسيت حرفته لأبدأ حتى بلغت الأربعين؟

في الوقت الذي يتشعت فيه الساعات والشهور أشياء مهمة؛ كنت أحتفظ بورقة منتزعة من نتيجة حائط تعود لعام زواجنا الأول، طلبات منزلية جدا: "نصف كيلو لحم مفروم، نصف بصل، كيس مكرونة اسباجيتي، ربع شعرية، نصف كيلو دقيق، بودر وفانيليا، زجاجة زيت، كيس سكر، وعبوة شاي صغيرة، بجنيه فول كل نصف لوحده، أربع بيضات، كيس ملح بعشرة صاغ، كيلو فاكهة من أي نوع".

لا أعرف سببًا للاحتفاظ بهذه القائمة من الطلبات دون غيرها طوال تلك السنوات الفائتة، ربما نسيتها في جيبي، لكنني لاحظتُ أن كمية الطلبات التي كانت تصلح لشخصين لا تزال تكفينا حتى اليوم.

أخرجتُ متعلقاتي وبدأت توزيعها على الغرفة كما يروق لي، أو كما يوحي خيالي بأن ذلك هو الترتيب المناسب، وضعت الأوراق البيضاء في درج المكتب، ثم أخذت وقتًا طويلًا وأنا أبحث عن قفل، بعض تصرفاتي لا يمكنني الوصول لأهدافها الحقيقية، لا أعرف لماذا كنتُ أبحث عن قفل كي أخبئ بضع أوراق بيضاء لا تساوي شيئًا؟!

خرجتُ من الغرفة، جلستُ على فرع مائل من شجرة، أخذتُ أؤرجح قدمي وأهز رأسي، الجنينة الصغيرة مفتوحة الأفق، تمنح فرصة كبيرة لتأمل النجوم في السماء، تخدرت ساقاي، همد جسدي فزهدتُ في هز الفرع المائل، حين تأملت الفراغ المحدود أمامي لم أرَ إلا ظلال

المصابيح القليلة المُعلقة على رؤوس الأشجار، بعض أوراق جافة تعصف بها الريح. في الظلام رأيت شبحا لشخص، شيخ يتحرك تجاهي ببطء، قدمه الثالثة تنغرز في الطين الندي، يخلعها بصعوبة ويقصدني. ضرب ضوءُ المصابيح المشنوقة على أشجار البرتقال في نظارته الكبيرة، اقترب مني ونطق اسمي بصيغة سؤال:

"مصطفى؟"

تأملته طويلا حتى عرفته، عمي محفوظ، ترك عصاه ودسّ ذراعيه تحت إبطي، تعلق فيَّ كالغريق، حضنني فلم تتحرك ذراعي من مكانها، لم أكن أحبه، ولا أدري ما الذي ذكَّره بي الآن، اختلطت الدوافع التي جاءت به في رأسي، سحب ذراعيه وبحث عن مكان للجلوس:

"سألت عنك حتى عرفت مكانك".

بنظرة واحدة صوبتها تجاهه عرفت أنه فَرَغَ من الإنسان الذي كرهته، لم تبدُ عليه المغامرات التي خاضها في شبابه، أصبح كومةَ جلد محشوةً بالعِظام.

كانت رقع الضوء تصنع أشكالا صغيرة بارقة، تتقافز مثل فراشات ملونة على عباءة عمي السوداء، يعلو صدره ويهبط في الظلام، وأشعر بدوخة خفيفة لمجرد ربط تاريخه القديم بمنظره الحالي، ما يمر بالدماغ في لحظات معينة لا ينتج معنى بالضرورة.

أسند ذقنه على العكاز:

"عاوزك تسامحني يا مصطفى. تأخرتُ كثيرا في رد حقّ أبيك".

وجدتُ متعة غريبة في ضعفه، قمت وابتعدت قليلا، أخذت أحوم حوله وهو جالس:

"أخطأتَ في حقه هوَ، فلماذا تطلب أن أسامحك أنا؟".

"سأذهب إليه قريبا وأخبره بكل شيء".

أخرج من عبّ الجلابية دوسيها يحتوي على ورق ووضعه أمامي، لم تساعد الإضاءة الضعيفة على القراءة، دخلنا الغرفة فطلب قهوة، وضعتُ كنكة البن على السبرتاية وجلسنا نتحادث:

"هذه أوراق الأرض التي أخذتها من أبيك".

أهز رأسي:

"قال لي أبي كل شيء".

قلَّب محتويات الدوسيه بيد مرتعشة:

"أين قال لك؟".

"في الأوراق".

سحب عمي محفوظ ورقة من الدوسيه ووضعها أمامي:

"لا أعرف عن أي أوراق تتكلم. كل ما أعرفه أن أباك له في ذمتي قيراط أرض كنت قد وعدته بأنني سأتاجر له فيه. وأبوك مات، وأنا أريد إبراء ذمتي من حمول الدنيا".

أصب القهوة، أعطيها له، بعد ثوان ترقص يده بالفنجان فأتناوله منه، عندما اقتربتُ منه جدا ونظرت في عينيه تحركت جبالٌ من الذكريات:

"أبي قال إنك أخذت كل شيء".

بعد أن همّ برفع الفنجان إلى فمه تراجع، فتناولته منه كما فعلت منذ قليل:

"أين قال لك أبوك هذا؟"

"قدر اللبن.. البطاقات الشخصية".

ترك مجالي والفنجان وأمسك بعصاه، توكأ عليها ووقف قرب باب الغرفة:

"قِدر.. بطاقات؟ عن أي شيء تتكلم يا مصطفى. أنا لم آخذ إلا حقي في ميراث أبي وقيراطَ أرضٍ وحيدا من نصيب أبيك، فتحتُّ به تجارة وربحتُ، وجئتُ أسدّد ما عليَّ من وعود لأخي الذي أصبح ترابا".

رغم أنني بدوت واثقًا من معلوماتي أمام عمي فإنني كنتُ أفكر فيما يقول، أراجع التاريخ الذي استندتُ إليه جيدا، سنوات وسنوات وأنا متأكد أن ما أقرؤه هو الحقيقة ولا شيء غير ذلك، لم يكن لديَّ أي استعداد لتغيير قناعاتي، خير وسيلة للدفاع الهجوم، وخير إجابة عن سؤال طرح سؤال جديد:

"وما الذي ذكرك بذلك بعد أكثر من أربعين عاما؟".

التفت إليَّ وابتعد قليلا عن باب الغرفة:

"أبدا. لا شيء.. المسألة كلها أنني سأموت".

"كلنا سنموت. لماذا تذكرتني الآن؟".

دقّ عمي بعصاه ثلاث دقات، ثم ترك العكاز يقع، حلّق بيديه وأخذ يرفرف، يطير دون أن يتحرك من مكانه:

"سأموت الآن يا مصطفى".

الكلمات لها وقعٌ مرعب أحياناً:

"الآن؟".

"أنا مريض بالمدعوق".

أفكر قليلاً، وأخمّن أنه السرطان:

"مسألة وقت. ويحفرون حفرة يلقونني فيها. وبعد أسبوع على الأكثر لن يتذكرني أحد. أريد أن أذهب إلى الحفرة خفيفاً".

لم تشغلني النبرة الواهنة التي يتحدث بها عمي. ولم تشغلني قيمة قيراط الأرض بسعر اليوم، بل فكرتُ كثيراً في أمر آخر أهم، أأكون قد ورثتُ هذا "المدعوق" عن عمي؟ أخذت الدنيا تلفّ بي وتدور، لا أدري هل أكلم عمي محفوظ بالفعل، أم أن مَنْ يقف أمامي الآن هو بقايا شخص كنت أظن أنني أعرفه؟

"لماذا تذكرتني يا عمي بعد كل هذه السنوات؟ أنت وأنا، في حال لا تسمح لنا بالكذب".

يلتفت عمي محفوظ ببطء:

"ولماذا أكذب عليك أصلا يا ابن أخي. اسمع يا مصطفى، هل جربت إحساس محارب فقد بندقيته للأبد؟ إنه لا يمكنه أن يكذب أبدا، فلم يعد لديه ما يخسره".

"وهل فقدت بندقيتك؟".

"بندقيتي وأسناني".

"كيف عرفت مكاني؟".

يلفّ سيجارة ويرشقها في المبسم، يسحب نَفَسا ويُخرج الدخان من منخاريه مندفعا، كشلال صغير يعبر كوخين. يجلس على حافة السرير ويكمل شُرب السيجارة في طمأنينة غريبة.

"كيف عرفت طريقي يا عمي؟"

يسحب النَفَس الأخير، يُخرج العقب من الفلتر ويطيح به بعيدا:

"لم أغادر القاهرة منذ أن جئتها.. اشتغلت في مليون شغلانة، وعرفت نساء بعدد.."

ملَّس على رأسه وابتسم:

"أكثر من عدد شعر رأسي. عندما كان لديّ شعر، وفي النهاية أبحث عن من لهم أي حق عندي، كأي إنسان يشعر بدنو الأجل".

وضع الدوسيه أمامي وهمَّ بالانصراف:

"أُدع لي يا مصطفى".

"ربنا يعطيك طول العمر".

يتناول عكازه، يلملم عباءته ويقترب مني:

"هذا دعاء عليَّ وليس لي".

لم أجد ردا.

"أدع لي بأن يسهّل الله طريقي".

"طريقك؟".

"إلى الحفرة".

"حفرة؟".

"لألتقي بأخي. بإبراهيم. وربما وجدت أبي هناك أيضا. جدك يا مصطفى".

ترك الأوراق وخرج. لثوانٍ؛ ظننتُ أنني كنتُ أكلم الأوراق، لا شخصا من لحم ودم وعكاز، تبدد ظني عندما وقفت أمام الباب فرأيتُ شبحا يسير بين الأشجار، يمشي ببطء كائنات الأحلام، ويختفي تدريجيا فلا تدركه الأبصار.

***

زيارة عمي محفوظ ذكرتني بعمي صالح وعمتي روحية، أشخاص كانوا يعيشون في بيت واحد على مرمى نصف قرن، والآن تفرقوا في الأرض، بحثتُ عن سبب لذلك، وكالعادة لم أعثر عليه.

جرس الغرفة، صوت لم تألفه أذني بعد.

نهضت وأنا أخمن الطارق، فرأيته من خلف الزجاج، محمود العراقي، "والله زمان يا محمود"، قلت في نفسي، يبدو من احمرار عينيه أنه لم ينم منذ يومين على الأقل. جلس على كرسي الفوتيه الأخضر وخلع البالطو

الأبيـض المشـبع بروائـح لا أحبها، علقه على مشـجب خلف الكرسـي وتجول في الغرفة قليلا، لمح أغراضي الشخصية على المنضدة:

"ألم تشبع من الكتب والأوراق يا مصطفى؟".

قـال ثم ابتسـم بمودة زائـدة، بدت كلماتـه معنية بالترحيـب بي وجر قدمي في حوار أكثر من طرحها لمسألة نقاشية جادة، لم أعر سؤاله أهمية كبيرة، فحاول مجاراتي بشـكل آخر: "كنت أتابـع تقاريرك الصحفية وأنا فـي إنجلتـرا، خاصة بعـد انتقالك إلى أخبـار الحـوادث، تبهرني قدرتك على نسـج موضوعات مطولة، حتى ولو كانت عن أشـياء عادية وتحدث كل سـاعة. كنت أقرأ ما تكتبه حتى السـطر الأخير لألمح اسـمك بالفنط الكبير.. مصطفى البحيري".

ذكرتني كلماته بسـجلي الصحفي كله، وبأنني كنت أعمل في صفحة الفـن قبـل انتقالـي لصفحة الحوادث، نُشـرت باسـمي تقاريـر كثيرة عن ممثليـن وراقصـات، أجريـت حـوارات مطولـة عـن الأكلات والأزيـاء المفضلة للفنانين.

وعـدت مـرة أخـرى أفكر فـي ملابسـات ابتعـادي عن صفحـة الفن وانتقالي إلى صفحة الحوادث.

ذات قبل مرضي، وفي يوم صيفي شـديد الحرارة اتصلت بي رئيسـة التحريـر: "دقيقـة واحـدة وألاقيـك فـي مكتبي. الأميـرة ديانـا ماتت في حادثة".. ذهبتُ على الفور إلى مكتب الريسـة: "اسـمع يا مصطفى. هذه الحادثة من أكبر الحوادث التي تجمع بين أخبار النجوم وأخبار الحوادث في وقت واحد، أرني همتك".

غيّر هذا اللقاء أوراقًا كثيرة في حياتي، اهتمامي بالحوادث منذ ذلك اليوم جعلني أرى في البشر حقيقتهم العارية من أي عمليات تجميل.

أثناء تذكري لكلام رئيسة التحرير كنت أفكر في موضوع آخر. أنا، محرر الحوادث، يمكن أن أصبح موضوعًا لحادثة. ألم ينسوا مناشف ومقصات داخل بطون المرضى في غرف العمليات؟ وأعود فأقول: يُستبعد ذلك جدا لو كان العمل الجراحي مرتبطا بالمخ. سيصعب نسيان شيء كبير في مكان صغير ومحدود مثل رأسي.

قال محمود كلاما كثيرا أثناء شرودي. لم أسمع منه كلمة. أفقت على صوته:

"أحيانا أحسد من يمتلئ رأسه بحكايات كثيرة يمكنه أن يحكيها لأولاده".

سرحتُ منه مرة أخرى وقلتُ في نفسي:

"عندي حكايات لكن ليس لديَّ أولاد".

صمتُّ لثوانٍ، ثم قلت بصوت جهير:

"حتى رأسي هو الآخر مُعرض لفقدان ما يحتفظ به من حكايات"

عاد ينظر إلى الورق والأقلام من جديد:

"اسمع يا مُصطفى. أُريدك أن تسترخي قدر استطاعتك. فهذا مفيد طبيا بشكل كبير، ذكرياتك مهما كانت ثمينة فهي ليست أهم من صحتك".

أبتسمُ:

"صحتي مُستمدة من ذكرياتي".

قام ورفع البالطو من فوق المِشجب ثم أضاف:

"أنت لا تزال تتذكر أحداث حياتك كاملة. أليس كذلك؟".

تأملته أكثر مما يجب، وقلتُ:

"ليس بشكل دائم، أحيانًا أتذكرها وأحيانا أشعر كأنها أحداث وقعت لشخص آخر غيري، تبهت وتقع منها بعض التفاصيل".

توقفت ذراعه عن الدخول في كُم البالطو الأبيض:

"يحتمل أن تكون المشكلة هي تأثرك بالكلام الكثير عن النسيان في الفترة الأخيرة. تخشاه ولكنك لا تنسى بالفعل، مجرد احتمال، من يخف من العفريت لابد أن يراه يا مصطفى، أو على الأقل يتخيله".

صديقي القديم يطمئنني باختيار مفرداته بدقة، كانت الكلمات وسيطًا غير جيد لتوصيل ما يريد أن يعبر عنه، حاولت التركيز قدر استطاعتي لأجاري حديثه، فخرجت كلماتي بلحن حزين أقرب لاعترافات برامج الليل الإذاعية، انسابت الكلمات على لساني فجأة، كأن من يتحدث شخص آخر غيري:

"أتذكر أشياء وتسقط أخرى، أنت محمود العراقي، صديقي وأصبحت طبيبي، مجتهد ولديك طموح أهَّلك للحصول على الدكتوراه من كلية طب مانشستر بانجلترا، صنعت مجدك من لا شيء، كنَّا مثل بعض تماما، أصبحت أنت صاحب مستشفى وأنا صاحب صفحة، أنت مدير لمبنى طبي وأنا مدير تحرير ورقي، هل تكفي هذه المعلومات المُختصرة عنك أو عني؟".

ارتدى محمود البالطو وقفل "الكباسين" وقال:

"هذا عمَّا تتذكره، فماذا عمَّا نسيته؟".

نظرتُ إلى الخارج ولم أرد، كان الجو مشجعًا على النُّعاس. قلتُ وأنا أشعر بصهد شتائي يخرج مع أنفاسي:

"احتفظ أبي طويلا بعُملات معدنية وأوراق مالية منقرضة. سافرتْ عبر الزمن سبعين عاما لتصل إلى يدي، كنتُ أعرفها كلها منذ خمسة أشهر فقط، ثم بدأت تعريفاتها تتسرب ببطء من ذاكرتي كما يتسرب الماء من ماسورة مثقوبة، لم أستطع معرفة إن كانت التعريفة هي المشرشرة أم المِلّيمان أم الخمسة تعريفة، حاولت التذكر مرارًا، بعد فشلي فتحتُ الكيس الأسود الذي يحفظ العملات والأوراق المالية القديمة من التلف، وعندما تأكدتُ من تحديد اسم العملات كلا على حِدة؛ شعرت كما لو كنت أتعلَّم أسماءها لأول مرة".

قال محمود مبتسمًا وهو يقف بالقرب من باب الغرفة:

"ولكن تذكُّر شكل العملات القديمة ليس بالشيء المُهم يا مصطفى"

فقلتُ وأنا أشير إلى رأسي:

"هنا، في هذا المستودع، لا يوجد شيء مهم وآخر تافه. هنا تتشكّل كل الذكريات. هنا يتخلَّق الإنسان بالكامل".

***

البنايات الأخرى تحجب المشهد في الخارج، تضيّق نظرتي وتخنقها، لا أرى المنظر الخارجي بوضوح، فأرتد مضطرا إلى مشاهدي المُعدة سلفا، صوري الجاهزة بداخلي.

المناظر تتآكل أم يُهيأ لي ذلك؟

كل من يمتلك ذاكرة يأخذ معها مزايا الخيال مجانًا.

النسيان التام أرحم من تذكّر ما فقدته بواسطة ما أتذكره.

عمودي الفقري ضرب مخالبه العظمية في لحم ظهري، كأنه يذكرني بأن هناك أعضاءً أخرى يجب عليّ الاهتمام بها غير الذاكرة.

كل ما استقر في رأسي انقضت أحداثه، لم يبق منها إلا بعض الظلال، أبي الذي قرأتُ في أوراقه قبل يومين أصبح سمادًا لشجر المقابر، وكل ما بقي منه بعض تفاصيل لا تتخذ موقفا واضحا في الذاكرة، منها ما بهت ومنها ما ينتظر طريقه إلى جُحر النسيان، وأمي أيضًا، المرة الأخيرة التي رأيتها فيها كنت في الثانية عشرة، نسيت صوتها، وصورتها الوحيدة الباقية كانت لامرأة ريفية على مشارف الأربعين، ما تبقى من سيرتها كلها بعض مواقف يكفيها يوم واحد.

أين يكمن معنى حياتي إذن؟

تجوّلتُ قليلا في الجنينة، أخذتُ أتصيد بكفي بُقع الضوء التي تتسلل إلى غرفتي. كنتُ أفعل ذلك بمَرح طفولي، عندما تتحرَّك البُقع أنقل معها كفي كوعاء يحملها، وعندما أشعر بالدفء أتحيز لهذه البُقع الذهبية المنثورة. أحبها من طرف واحد. تقافزت أمامي مواقف بعيدة ومشاعر

مستهلكة، حاولتُ إعادة استخراجها مرة أخرى، قناعاتي الموروثة تطفو أكثر من الكلام. انعطفت عجلةُ الأحاسيس يمينًا ويسارًا وتقلَّبت على أوجه هوى لا تحكمه قواعد، بعض ما يفور بداخلي لا أقوى على قوله، أو حتى كتابته، وأحيانًا لا أقوى على معرفته.

تبدو حياة التذكر مختلفة في شكلها وطعمها عن الحياة التي عشتُها بالفعل. كل يوم يسير بي للأمام يدفعني مرغما لتذكر يوم آخر ذهب إلى الخلف، وكأنهما؛ المستقبل والماضي، سيتلاقيان عند نقطة واحدة، في مكان ما مجهول.

جرى القلم على الأوراق بسرعة غير معتادة، وقلَّت مساحة البياض بشكل غير متوقع.

بينما أواصل الحياة داخل عدد من أشخاص الماضي: جاءني موظف من المستشفى، أخرج ورقة من ملف وقرأ اسمي بصيغة سؤال:

"الأستاذ مصطفى".

أهز رأسي بالإيجاب.

"سنذهب إلى قسم التصوير بالأشعَّة".

"الآن؟".

"الآن".

أترك أوراقي وأفكر في طريقة أغلق بها الغرفة، معي مفاتيح لكني لا أطمئن بسبب وجود نسخة أخرى مع شخص آخر في مكان لا أعرفه،

وضعتُ الأوراق التي قمت بكتابتها في حقيبة أبي، التصقت أفكاري بأوراقه، ثم تأملت الغرفة من جميع الاتجاهات، أبحث عن مكان آمن أُخبئ فيه تصوراتي وانفعالاتي، لا أدري لماذا يجب أن يكون لأي إنسان سر؟ لو خُلق شخص بلا سر سيخترعه.

وضعت الحقيبة تحت السرير وخرجت مع الموظف، كنتُ أكلمه بطريقة من اضطر للتواجد مع شخص لا يعرفه في مكان واحد.

"ما اسمك؟".

"عبدالله. لو احتجت شيئا في أي وقت اتصل بي فورا".

"من الذي أوصاك بذلك؟".

"الدكتور محمود".

أعطاني "كارت" مزخرفًا عليه اسمه وأرقام الموبايل الخاصة به، خلفية الكارت أجهزة طبية حديثة يقف أمامها طبيب أجنبي.

"هل ستظل معي طوال الأيام القادمة؟".

"طلب مني الدكتور محمود أن أكون في خدمتك طوال فترة وجودك معنا. اتصال واحد ستجدني أمامك".

كنتُ غير منشغل بما يقول. سلمني إلى طبيبة الأشعة وانصرف بابتسامة ودود. المعاملة الرفيقة بشكل مُبالغ فيه تصنع وخزا من نوع خاص، كأنه يقول لي بشكل أو بآخر: "لابد أن أحسن معاملة شخص ضعيف مثلك".

تعطيني طبيبة الأشعة قميصا غريب الشكل، ثقيلا كأنه محشو بالرمال، تُدخلني إلى جهاز منتصب في منتصف الغرفة، وله تجويف من المطاط يستوعب إنسانا، تحيط بالجهاز ألوان فاقعة من جميع الاتجاهات، ضغطت على زرّ من داخل كابينة زجاجية، فبدأ التجويف المطاطي يدخل إلى مكان أشد إضاءة، وأنا معه، تركت الطبيبة الرغيف ينضج في الفرن، مللتُ الانتظار، اهتزّ التجويف، ضغطتْ الزر مرة أخرى فخرج الرغيف، ابتسمتْ وهي تأخذ بيدي، كانت أصابعها باردة جدا، دخلتُ إلى جهاز آخر، أجرى مسحا على منطقة البطن، الكبد والبنكرياس، الأمعاء والمثانة، الطحال والرئتين، الحوض بمشتملاته، أظهرها المسح كلها سليمة، بل في حالة ممتازة. اختبرتْ الطبيبة درجة حرارتي ثم أوقفتني على ميزان وكتبتْ بعض الأرقام في ورقة، سمحت لي بعد ذلك بالخروج، وقبل أن أفكر في كيفية العودة إلى غرفتي رأيت الأستاذ عبدالله ينتظرني بالخارج، وكما جاء بي عاد.

كانت المرة الثانية التي أدخل في هذا الجهاز خلال يومين فقط، أصبح الجهاز روتينا، كما أصبح الكلام عن العلاج أيضا روتينا، الصباح والمساء، الصمت والكلام، الحياة كلها روتين، عدا الحب، هو الشيء الوحيد المتجدد دائما ولا يخضع لنظرية الروتين.

أصل إلى غرفتي مرة أخرى، يقف الموظف ويعقد ذراعيه على بطنه:

"تأمرني بأي حاجة؟".

"أشكرك".

انتصار كبير ظفرتُ به، عرفتُ الطريق من وإلى غرفتي دون تفكير طويل.

ما إن فتحتُ الباب حتى تسللت إلى أنفي رائحة طعام، وجبة الغداء على المنضدة، "سرفيس" معدني به ربع دجاجة وأرز وخضار وبيضة مسلوقة وثمرة تفاح، بجوار السرفيس زجاجة مياه صغيرة، هي ليست غرفتي وحدي إذن، يشاركني فيها موزع الوجبات وعامل النظافة، والأستاذ عبدالله، غرفتي قطاع عام رغم أن المستشفى خاص.

أكلتُ ما سمحت به الشهية، ثم أخرجت أوراقي مرة أخرى، عدت إلى نفسي أرتب أفكاري من جديد، فما كتبتُه حتى الآن مجموعة أفكار غير مترابطة، لا تؤدي إلى معنى واضح لمن يقرؤها، أو حتى لي أنا عند استعادتها، لماذا لا تكون منظمة أكثر من ذلك؟ سأرتبها قدر استطاعتي ما دام أحد لن يقرأها غيري، سأكتبُ ما أشعر به صراحة دون لف أو دوران.

السرطان؛ هل هو جنون الأعضاء؟

أحمل مخي معي كطفل رضيع، أم هو الذي يحملني كأب عجوز؟

بعد انتزاع أحماله الزائدة من رأسي، هل سيظل المخ يفكر؟ كما يفعل القلب عادة عندما ينفصل عن صاحبه، أم سيأخذ طريق النفايات، ويستقل العربة صامتا إلى المحرقة؟

الأعضاء البشرية، أوركسترا متناغمة، كل عضو في الفرقة يمسك بآلة تحدد نغمتها الخاصة، حتى أخفتها صوتا تودّ لو تظل مسموعة، تقوم بالعزف، تظلّ على قيد الحياة.

اثنـان فقط أخشـى نسـيانهما، محمـود وابتسـام، أخـاف أن تخذلني الذاكـرة وتشـطبهما من صفحتهـا، ماذا سـأفعل لو تشـوشـت ملامحهما وأصبحـتُ لا أعرفهما جيدًا؟! لا شـيء يُضاهي ذلك الإحسـاس، لا هو خـوف ولا هـو رهبة أو أي كلمـة كبيرة أخرى، فتسـاقط بعض الأحداث من دماغي يشبه حركة أظافر طويلة تحتكّ بأوانٍ نحاسية، أو صفارة بطيئة على إيقاع طبل ثابت، لم أسمع مثل هذه الأصوات من قبل.

همس لي أحدهم بنبرة طبية رخيمة: "يُحتمل أن تنسـى بعض الأشياء بعـد إجراء العمليـة". وبالطبع كلمة "بعض" كانت محشـورة في الجُملة على سـبيل التفـاؤل، وما دامت الكلمـات هي التي تُحـدد ما يحدث لي فيمكن بسـهولة حذف كلمة "بعض" ووضـع كلمة "كل" مكانها، وهكذا يتغير الطريق وفقًا لتغيُّر الكلمة.

هـل يمكـن أن يتركـني بعضـي؟ الكلمات لهـا وقع مختلـف ومعانٍ لا حصـر لهـا، فجملـة "يتركني بعضـي" لـم تكـن ترجمة دقيقـة لما أريد التعبيـر عنـه، بـل كانـت تحمل شـحنة أدبيـة أكثر ممـا ينبغـي، احتفظتْ ذاكرتـي بالجملة مـن حوار أجريته منذ سـنوات بعيدة مـع رجل قتل كلَّ أسرته وفشل في قتل نفسه، قالها لي وهو في حالة نفسية سيئة: "أردتُ أن أموت معهم. إحساس صعب أن يتركني بعضي وحيدًا".

رحـت أنظر عبـر النافـذة الوحيدة في الغرفـة، أتابع تغيـرات الطقس وأتأمل الدخان الأبيض الذي يخرج مع زفيري، حسـبتُ أني في محارة، والبحـر الكبير يموج بالخـارج، غالبت المطر والظـلام وتركت غرفتي،

الأشـجار مبللـة، وقطـع اللحـاء غاصـت مـع بعـض أوراق متسـاقطة، وانطمس كل شيء في الطين، توجهت إلى أقرب شجرة برتقال، في يدي اليمنـى قلـم، وفي الأخرى مديـة صغيرة، حفرت الأحرف غاطسـة على جـذع الشـجرة "ا ب ت س ا م، م ح م و د"، تأملـت الاسـمين طويلا، ثم قلتُ في نفسي: "لو جاءا الآن هنا سأقول لهما لا تقربا هذه الشجرة".

***

أكتـب إليك اليوم يا محمود وأنا غيـر متأكد من وضوح الكلمات في رأسي، هل سأعرف بعد ساعات قليلة معنى ما أكتبه؟ لا يهم ذلك بشكل كبير، فالرسائل قبل أن تصل إلى قارئها تشفي كاتبها من ضغوط الأفكار، أكتب رسـالتي على ورق معطر من دفتر قديـم، برغم أننا في عصر البريد الإلكتروني.

محمود..

لا يمكنك أن تتخيل قدر المعاناة بداخلي، أعرف تعجبك من اختياري لك أنت بالذات لإجراء عمليتي الجراحية، لن تصدق، كنت قد أوشكتُ على نسـيانك، ابتسـام هـي التي ذكرتني بـك من جديـد، وكأن قَدَرها أن تُذكرني بك قديمًا وحديثًا، مفترض أنك آخر من يصلح لشـق رأسي وأنا تحـت تأثيـر المخدر، لقـد وافقتُ لأنه لم يكـن لديّ حل آخـر، ولكنني خفت منك أيضا، فربما تحكمتْ فيك شهواتُ الماضي وأفسدت رأسي بالكامل، وذلك لا أخشـاه بشـكل كبير، سـتمنعك صداقتنـا التي امتدت لسـنوات طويلة، لم ألحظ خلالها في تصرفاتك ما ينافي الضمير، ولكن

في الوقت نفسه ربما لا تهتم برأسي جيدًا، فليس من صالحك أبدًا أن أعود بكامل حيويتي وجميع ذكرياتي.

الحقَّ أقول لك. لقد فكرت مرارًا أن أستعين بطبيب آخر غيرك، كنت سأختار ذلك الآخر قبل مجيئي إليك بيوم واحد، ولكني تراجعتُ في الساعات الأخيرة وفكرت، كيف أستأمن على ذكرياتي أحدًا غيرك؟ فكما تحمل الديوك دائما تيجانها الوردية فوق رؤوسها؛ أحمل أنا أيضا ذكريات أسلافي فوق ذكرياتي، وعلى كاهلك وحدك سألقي بالسلسال كاملا، أبي وجدي وما تبقى من فروع الشجرة، تاجي الوردي أيضا يحمل الليالي التي كنا نقضيها في الغرفة بالإيجار أيام الجامعة، نقاشاتنا وصراعاتنا الفكرية التي كانت كلها صروحا من ورق ومن أفكار الآخرين. كيف يمكن أن أنسى الهيكل العظمي الحقيقي الذي سهرنا بجواره ليلة كاملة ونحن نستبعد أن هذا الشيء كان إنسانًا له رأس وقدمان مثلنا، ليلتها لم أنم، الهواجس أكلت النوم.

كيف أنسى المرأة البدينة السوداء التي تقاضت أجرًا من كلينا خمسة جنيهات، وبرغم ذلك فإننا تفرجنا على جسدها فقط، فبعد أن ذهبت سَكْرة الخيالات رفضتَ الصفقة، لم ترفضها لدمامة المرأة وترهلاتها، ولم ترفضها لأن من ساومناها وراودناها عن جسدها كانت في مثل عُمر أمهاتنا، ليست تلك هي أسباب الرفض، فقد كان السبب الرئيسي هو تقديرك لي يا محمود، خوفك من أن ندخل كلانا إلى امرأة واحدة، نلجُ المكان نفسه فيها، كان من الصعب عليك تَخيّل ذلك، بعد أن أفقنا في منتصف الطريق صرفناها وأعطيناها الجنيهات العشرة دون نقاش. هل

تذكر يا محمود؟ ربما تخونك الذاكرة لكثرة ما تتعرض له من بنج نفاذ، وربما تسيطر عليك أفكار أخرى أكثر بريقًا مما أذكّرك به الآن.

محمود..

ما أريد أن أحدثك عنه سيحتاج إلى رسالة ثانية، وربما ثالثة ورابعة، وربما ملأتَ وحدك أوراقي كلها دون أن أدري، لا تثق بشكل كبير في كلماتي التي أكتبها إليك الآن. فذاكرتي مليئة بالثغرات، وتحذيراتي لك تزيدني ارتباكًا، كيف أكتب إليك ما أود أن تقرأه وفي الوقت نفسه أحذرك من عدم دقته؟

أراك الآن وأنت تلبس "روب" الجامعة ذا الوشاح وتضع قرنفلة في عروة الجاكيت، تقف خلف المنصة وتضع أمامك "بوكيه" ورد كبيرا، تناقش أطروحتك في الدكتوراه بثقة وتحاور الأساتذة الإنجليز بالصبر والحُجّة. لا أود كما تعلم أن أكون مؤرّخًا أو منظّرًا لأي أمر من أمور الحياة، ولكنني أريد فقط أن أحتفظ بحكاياتي كما أعرفها، كما أراها الآن بعقلي المجهد وذاكرتي المتقلّبة.

أعرف أن قبولك لمثل هذه المسئولية هو بطولة بحد ذاته، فبعد أن يدفع أحد الممرضين سريري خارج الغرفة المضيئة ربما لا أعرفك حتى أشكرك على ما فعلت.

صديقي..

حتى لو وصلتُ بسبب مبضعك الأعمى لحالة من الجنون؛ فأريدك أن تتذكر هذه الجملة، أن الجنون نوع آخر من عقل غير مألوف، فصرامتك

وإصـرارك علـى السـفر رغـم ظروفـك الطاحنة يُعـد نوعًا مـن الجنون، خرجتَ من بيتك بلا عودة بعد اكتشـاف أن أباك لا يسـتطيع الإقلاع عن تعاطـي الأفيـون، كان يضع منه قطعا صغيرة كحبة العدس تحت ضرسـه قبـل الصلاة، فيصلي أحيانا الفرض مرتين، ويؤكد لك أن الناس لو بلغوا مبلغه سينصلح حال العالم، ولن يصبحوا على ما فعلوا نادمين. لم تناقشه فـي مثل هذه المفارقات، صمتك المتكـرر تجاه من تختلف معه كان من أسـباب تمسّكي بصداقتك طوال هذه المدة، نقلتَ لي خبر تركك للبيت باقتضـاب وتركيـز، ثم لم تفتـح الموضوع بعد ذلك أبـدًا، المرة الوحيدة التـي تجاذبـت معـي أطراف الحديـث فيها قلـتَ: "ليس باسـتطاعتي أن أختـرع لي أبا غيره مهما حدث"، ورغم تركك للبيت فقد كنت تزوره في الأعيـاد، تدّخر من عملك في محل الجزارة لتوفر له ثمن الفاكهة وأدوية تعالج الزمن. كنتَ في السـنة الأولى بكلية الطب وتعمل مساعدًا لجزار، لـم تـر في ذلـك أي عيب، ولـم تقبـل أن يعطيك الجـزار صاحب المحل نصـف كيلـو لحم قبل أن يؤكد لك بأن ثمنَه سـيُخصم من أجرك اليومي، أنت حقاني، وأنت جراح شاطر.

حاولتَ أن تخترع شـعورك الخاص تجاه كل ما يمر بك من أحداث، عندمـا ضاقت بـك الحيـاة وكان المطلوب منـك أن تراجع مـوادَّ الطب لمدة سـبع سـاعات في اليـوم على الأقل؛ طلبتَ مـن صاحب المحل أن تتـرك موقعك على ماكينة الكاشـير وتنتقل إلى سـاحة المذبح، فالوردية هناك مرتبطة بقتل عدد محدود من الكائنات، ثم تنصرف بعد ذلك. كنتُ أعـرف يـا محمود أنك لا تسـتطيع ذبح دجاجة، لكني رأيتك بجسـارة لا

أعـرف من أين أتتك تذبح الثيـران والعجول بمهارة، احترتُ لمدة طويلة في رسـم تصور يناسبك، وعندما سـألتك: "لماذا لم تستمر جالسًا خلف ماكينـة الكاشـير النظيفـة بعيدًا عن الدمـاء؟" أجبتني: "في هـذه المرحلة أحتـاج إلـى الدمـاء". أرعبتنـي إجابتـك السـريعة، خرجـتْ منـك هـذه الكلمـات وأنـت تحدق في عجل صغير لا تزال الـروح فيه تعافر، يرفس بأقدامه الهواء، عاجلتَه وسـددت طعنة إلى ذيله فاندفع منه أنبوب أحمر، ولوَّث وجهك.

طوال سـت سنوات وأنت على هذه الوتيرة، العمل في محل الجزارة صباحًا ثلاثة أيام في الأسبوع، والذهاب إلى الكلية الأيام الثلاثة الأخرى، ومـا تبقى من وقـت كنت تقضيه في تحصيل مواد طبيـة تلتهم المزيد من السـاعات، تخرجتَ بعدي بثلاث سـنوات كاملة، وكانت هذه هي نقطة الاختلاف الأولى بيني وبينك.

لم يكن لك أصدقاء غيري، وأنا كذلك تقريبًا، الفرق بيننا أن انطواءك جعـل منـك أمام الناس إنسـانًا غامضًا، فقـد كانت رؤيتـك للعالم مغلفةً بتناقضـات أنت نفسـك لا تفهمها. رغم ذلك لم أخـف منك ولو للحظة واحـدة، كنـتُ أطمئـن إليـك أكثر مـن أي إنسـان. وبعد فتـرة وجيزة من تخرجـك باغتني سـؤالك، الذي هو مربـط الفرس: "مصطفـى. أريد أن أتزوج".

ومنذ هذا اليوم تغيرتْ في حياتك أشياء كثيرة.. وفي حياتي أيضا.

***

ابتسام..

لا أعرف لماذا أكتب إليكِ الورقة الثانية بعد رسالتي إلى محمود، حتى صباح هذا اليوم وأنا لا أعرف موقفًا محددًا من مشاعري الحقيقية تجاهك، فطوال زواج استمرّ عشرين عامًا وأنا أقنع نفسي بأنني أحبك، وهذا وارد بشكل كبير، أنني أحبك، لكن كلما تذكرتُ شريط حياتنا ودمجته مع حياة محمود العراقي انتابتنى الحيرة وأكلتني الهواجس.

هل تتذكرين يا ابتسام؟ المفكرة الصغيرة التي كنتِ تحتفظين فيها بمسحوق ورد قديم وخصلات شعر، ذكرياتك الباقية من صديقاتك، ثم من خطيبك الأول، ثم احتفظتِ بورودي في صفحتها الأخيرة؟

تأخذ الأشياء أشكالًا في المخ غير طبيعتها في الواقع، بل إنني أشك في كلمة "طبيعتها" أصلا، فلو كانتْ الطبيعة ثابتة لما احترنا في نقل معناها للآخرين.

حاولتُ كثيرًا أن أحفر ملامحكِ في ذاكرتي، كل ليلة كنتُ أنجح في فعل ذلك بشكل جزئي، حتى يأتي الصبح محملًا بنسيان كل ما كنتُ أفكر به، العلامات التي اتخذتُها سبيلًا إليكِ كانت تخونني بسهولة، أوراق الورد الذابلة في المفكرة الصغيرة، الكلمات الرقيقة التي كانت تمثل رسائل صغيرة كالبرقيات، تستمعين بإعجاب لما أستمع إليه، لا أدري هل هو توافق بيننا أم سلبيتك في عدم تحديد مزاجكِ الخاص؟ كنتِ تُشبهين التماثيل الرومانية القديمة، وتتميزين بحيادها تجاه الروايات التي يرويها التاريخ عنها.

اسمك يحمل نغما جميلا.

ابتسام..

بعد مرور كل هذه السنوات على زواجنا، بعد الخطابات الغرامية والكلام الشاعري، بعد التغاضي عن مشكلة عدم الإنجاب؛ وجدتُ نفسي أرتدّ واحدًا وعشرين عامًا إلى الوراء، وأتذكر يوم أن جلستِ بجواره على الكرسي الكبير المزين بخيوط ذهبية، عندما وضع خاتم الخطوبة في إصبعكِ، كنتُ أحد المدعوين، فرحتُ لكِ، أنتِ تعلمين ذلك جيدًا، لكن ما أن جلستُ أنا في العام التالي على الكرسي نفسه؛ بدأ الهاجس يعمل بطاقته القصوى، وبدأت أفكر للمرة الأولى في الشخص القديم، من كان يجلس مكاني، من ألبسكِ الدبلة الذهبية ومن فوقها الخاتم، من جلس يبتسم للمصورين ويرشف من كأسكِ، كان يوشوشكِ فيجبركِ على ابتسامة شبه ثابتة، وأنتِ تنتقين كلماته من بين الضجيج. خرج خطيبُك القديم من المشهد بعد خطوبة لم تدم شهرين، ولكنه لم يخرج من ذاكرتي، لم يتركني حتى الآن، كأني صِرتُ مرتبطًا به بشكل دائم، مصيري له علاقة ما بمصيره، فأنا أعرفه قبل أن يخطبكِ، وأعرفكِ قبل أن أعرفه، هو صديقي وأنت ابنة خالتي.

أرجو أن تسامحيني إن تجاوزت، فآلة التذكر في رأسي تنسى الأحداث العادية بسرعة، يتعلق بها فقط كل ما يستدعي الشك والغرابة، أنا متأكد أنك ستسامحينني إن كتبت شيئًا أزعجك، ليس لأنني أستحق التسامح، ولكن لأن طبيعتكِ متسامحة مع كل الناس، وهذا السبب بالذات هو ما

جعلني أستدعي تفاصيل خطوبتك الأولى، كانت صورتك وأنت بجواره تحضر أمامي كل يوم بعد زواجنا.

ابتسام..

أعرف جيدًا أن ما أمنعكِ عنه الآن سوف أطلبه منك غدًا، فأنا أكثر من يحتاج لتسامحك في الأيام القادمة، ستتحملينني عندما تُمحى من رأسي بعض المعلومات، أليس كذلك؟ أشعر أحيانا أن الجاذبية الأرضية تشدّنا لنكون أغبياء، توهّمنا أن الواقع الأرضي هو كل شيء، أشعر أن حياتي تُشبه الحركة البطيئة كما تبدو في الأحلام.

ابتسام..

ينتابني تجاهكِ قلقٌ غامض، فكلامك القليل كانت تصاحبه متعة سرية عندما فكرتُ فيك كزوجة، لكن عندما تكرر الصمت وأصبح مصاحبًا لكل صخب الحياة وضجيجها من حولنا؛ استحالت متعتي السرية إلى كبت وضيق، وبدأتُ أحيل صمتك إلى التفكير في الأصابع التي لمستكِ أولًا، التي أدخلت في معصمك الإنسيال الذهبي وطوقت عنقك بسلسلة يتوسطها قلبٌ محفورٌ عليه اسمه، حملتِ اسمه فوق صدرك لمدة شهرين، وعندما غادر لم تمانعي أن يتبدل اسمي باسمه، هكذا بمنتهى البساطة، حتى المُفكرة العامرة بالورد؛ لم تمانعي في تبديل ورودي الجديدة بوروده الذابلة، ولكن ما كان طازجا بالأمس ذبُلَ اليوم، وربما أصبح في حاجة إلى التبديل بأحدث منه.

ابتسام..

لن يسمح لي الوقت بأن يمرّ شريط حياتنا من أوله، لم أعد أنام في اليوم أكثر من ثلاث ساعات، وما نقص من نومي زاد على تفكيري، تلك الساعات الواقعة بين الغفو والصحيان، نعومتها في التذكّر تربكني، تخرج إليَّ بأحداث غريبة لا أدري هل وقعتْ بالفعل أم ساهم في تخليقها الإرهاق والسهر؟ اختلطت التهاويم بالحقائق في صندوقي الأسود، كلما أكتبُ جملة أقوم بشطبها سريعا قبل أن تثبت في رأسي، لا أريد أن أفكر كثيرا فيما أتذكَّره، وأحيانا لا أجد جدوى من تلك الصفقة الخاسرة مع نفسي، صفقة الذكريات التي لم تُعطني ما أردتُ من متعة.

***

محمود..

عدتُ إليك وأنا منهك الوجدان بليد التذكر، حتى أن اللحظة الفارقة التي كنت أريد أن أحدثك عنها قد غادرت رأسي بسرعة، لحظة من تلك التي تغزل الأحداث لأعوام طويلة، ليس من الضروري أن تغيب لحظة لتحلّ أخرى مكانها، فيمكن أن تترك مكانها شاغرًا لصالح الهواجس وحدها، وهذا هو ما حدث معي، عندما آويتُ للكتابة إليك تبخَّر الموضوع من دماغي، تركني ولا أعرف إلى أين ذهب.

محمود..

أنا أتهرب منك، بالأدق، أتهرب من الموضوع الوحيد الذي تعرف أنه أهم كلام بالنسبة لي، فأي موضوع آخر لن يجدي فيه الحديث بيننا، ابتسام، نعم ابتسام هي الموضوع، هي الكائن المشترك بيننا، أنا لا أريد

منك إلا شيئًا واحدًا، أن تذكّرني لو نسيت، تذكرني بأن ابتسام هي زوجتي، حبيبتي، أنا، وحدي، لا تطمع في أكثر من ذلك، حتى ولو أتيحت لك الفرصة بنسياني المُحتمل، حتى ولو رأتْ ابتسام غير ذلك. محمود، هذا هو مربط الفرس، أنا آمرك أن تفعل ذلك، تذكّرني بما كتبته هنا، في هذه الصفحة بالذات. لا يا محمود، لا تصدق ما كتبتُه في السطر السابق، أنا لا آمرك، أنا الذي أطلب منك أن تُذكرني، بل أرجوك، لا تتركني نهبًا للحيرة والهواجس لو نسيتُ هذه الكلمات، من الصعب جدا أن تأتي عليّ لحظة لا أعرف فيها إن كانتْ ابتسام لي أم لك. هل ما زلتَ تذكر المرأة البدينة السوداء؟ لم تكن لها أهمية كبيرة، بل لم تكن لها أهمية تُذكر، لك أو لي أو لكلينا، لا يهم، ولكن ابتسام شيء آخر، فقد ظلت زوجتي لعشرين عامًا، وقد أكدتْ لي مرارًا بأنها تحبني، تحبني جدًّا يا محمود، تستيقظ في عز البرد لتسحب فوقي الغطاء، وتنزعج لو أُصبتُ بدور برد تافه، هناك مواقف أخرى أروع تُثبت حبها لي، لا يصحّ أن أحدثك عنها. وليكن في علمك وضميرك، نعم، ليكن في ضميرك، هي لم تنزعج من عدم الإنجاب، لم تنزعج أبدًا، فقد اتفقنا على أن الحياة بدون أبناء لها جمالها الخاص، فلا ضوضاء ولا قلق على مستقبل ولا نفقات، وقد وافقتْ على هذه الحياة الهادئة بنفس راضية دون ضغط مني، خيّرتُها أن ننفصل ورفضتْ، اقترحتُ عليها أن نبحث عن طفل بالتبني، ورفضت ذلك الاقتراح أيضًا.

يجب عليك أن تصدقني، فأنا الآن أشبه بشخص يكتب وصيته، لا وقت للمماطلة أو التعديلات، ولا نية لدي لتغيير هذه الأوراق، أحاول قدر استطاعتي أن أبحث عن مشاعري الحقيقية، وعندما وجدت هذه

المشاعر تشككتُ فيها وسألتُ نفسي، هل هي حقيقية، بل هل هي مشاعري أصلًا أم أنها بعض تأثرات طارئة من انفعالات الآخرين؟.

اسمع يا محمود..

هل جربتَ مضغ الحروف من قبل؟ استمع معي لهذا الجرش اللذيذ، ابتسام لي. لي، هل جربتَ استطعام هذه الـ يي. يي؟ أنا جربتُها، واستعذبتُها، وبالقدر نفسه كرهتُ أن تكون ابتسام لك. لك. أك. أك، هل جرشتَها، هل تتفق معي أنها كالزلطة؟ أك. أك. أكرهها جدا، لا أود أن أكرهك بسبب هذه الـ أك. أك.

لقد كذبتُ كثيرا على نفسي، قلت إنني هنا لديَّ فرصة كبيرة للانفراد بنفسي، وقلت في هذا المكان سأصبح بعيدًا عن كُل ما هو خارجي، فلا مقابلات ولا صُحف ولا بريد إلكتروني، سأتفرغ فقط للتذكر، محمود أنا لم أتذكر منذ مجيئي إلاك، أو بالأدق؛ لم أتذكر إلا علاقتك بمن كانت خطيبتك وأصبحتْ زوجتي.

***

بنظرة واحدة إلى ابتسام كنا نستعيد ذكرى معينة دون كلام، أو ما يمكن تسميته اختصارا "سيم".

طيَّرت رِيح خَفيفة بَعض أوْراق الشجر، فالتَصَقت بالبَاب الزُّجاجي ورفضت الانصياع للجاذبية الأرضية، تأمّلتها ولم تُفض تأملاتي إلى شيء واضح، كان ارتطام الهواء المندفع بالباب يُصدر صوتا كالوشوشة، جلستُ على كرسي الفوتيه مرةً أخرى، فتحتُ المصحف وقرأت:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، تركتُ المصحف وأخذت أتأمل أوراقي البيضاء لمدة أطول من اللازم، أحارب النسيان بالتذكر، فيشدني التذكر إلى المزيد من النسيان.

لم أستطع استكمال رسم الاسكتشات للأشخاص الذين مروا في حياتي، فقد اختلطتْ الوجوه كما اختلطت الكلمات.

خوفي من إطلاع أحد على ما يدور في رأسي جعلني أُشبه الجنين، فلا أنا إنسان واثق الوجود، ولا أنا بقعة دماء متجلطة وساذجة، في دماغي تدور إمكانية النجاة بطوق أنقذ من قبل آلاف الأبدان، الكلام.

جاءتني الفكرة ولم أتردد..

أوصيتُ أحد الصحفيين الذين كنتُ أدربهم في العام الماضي وأصبحوا محررين أن يشتري لي آلة كاتبة، فقد تدربتُ على استخدامها منذ كنتُ محررًا صغيرًا، وبالفعل، بعد ساعات جاءني الشاب بالآلة الثقيلة، كان يلهث وهو يحملها فوق كتفه، عاينتها، كانت بحالة جيدة، فاقدة فقط لبعض البوية الزرقاء من الأمام، جهَّزها المحرر الشاب بشريطين، واحد أسود والثاني أحمر، كانت مُزيتة وجاهزة للعمل فورا، شكرته على حملها حتى غرفتي. أول ما فعلته هو نزع الشريطين الأسود والأحمر عن المسطرة الدوّارة، وضعت ورقة بيضاء بين الماسِكَين وضبطتها بالبكرة، ثم قمتُ بنقل بعض ما كتبته بالقلم على الورقة، نقرتُ الأحرف الميكانيكية. الحرف البارز ينغرز في الورقة دون أن يترك أثرا بالحبر. بعد أن نزعت شريطي الحبر قُمتُ بكتابة ورقة كاملة ثم سحبتها من فم الآلة، فرأيتها كأن سطحها لم يمسسه بشر، وكل ما عليها من نقرات يشبه التعرجات التي

تصيب الورق عند تخزينه. اقتربتُ من باب الغرفة، رفعتُ الورقة إلى أعلى متقمصًا دور طبيب أشعة، فبانت الكلمات بكل وضوح.

كانت هذه هي الفكرة بمنتهى البساطة.

أكملتُ نقل كل ما كتبتُ بهذه الطريقة حتى لا يستطيع أحد قراءة كلماتي، تبدو الأوراق لرائيها بيضاء غير ملوثة بالكلمات، ولكن بقليل من المجهود في الضوء يمكن رؤية ما كُتب بسهولة، أكملت يومي وأنا أجرب هذه الحيلة الجديدة، لاحظت أنني أكتب كلمات أكثر، أسرع بشكل ملحوظ، لن يرى أحد ما كتبتُ إلا بعد أن أدلّه بنفسي على طريقة القراءة الجديدة.

الشَّفَق

4

الشَّفَق

يدخل محمود غرفتي، يبتسم ابتسامة لها برودة البنج، كان يحمل تحت إبطه صندوقًا صغيرًا من الخشب، مرسومًا بداخله مثلثات طاولة، ومن الخارج منقوش عليه مربعات شطرنج، صافحني بجدية ثم فتح الصندوق ورصَّ القطع البلاستيكية، نثر العساكر والحيوانات والملك والوزير بنظام مُحكم وسرعة من اشتاق للعب. المرة الأخيرة التي لاعبته شطرنج كنا في مطار القاهرة، عندما ذهبتُ معه لأودِّعه إلى انجلترا، مكث هناك خمس سنوات وعاد يحمل دكتوراه من كلية طب مانشستر في جراحة المخ والأعصاب. حينئذ لم نجد في كافيتريا المطار خدمة تقديم شطرنج مع المشروبات. عندما تقابلنا في ذلك اليوم البعيد كان يحتفظ في جيب البالطو بصندوق شطرنج صغير، أكبر قليلا من علبة سجائر، فتح الصندوق الصغير فوق إحدى عربات حمل الحقائب، كُنا ننقل العساكر والطابية بأطراف أصابعنا، تيبَّس ظهري من الانحناء وتعبت عيني من صعوبة التفرقة بين القطع، بعد تحمُّل البرد واحتمال اختلاط الملك بالعساكر هزمته دورين متتاليين. لا أتذكر آخر مرة تمكن فيها من هزيمتي، لكنّ أمله لم ينقطع: "في يوم ما سأهزمك". قال وهو يلوّح تلويحة الوداع، رفع يده فرفعتْ معها البالطو الأسود الثقيل، تابعته وهو يبتعد ويعبر الحواجز في المطار، كان اختفاؤه التدريجي أكثر ما علق بذاكرتي.

"لا أحد يحتفظ بسبرتاية أثناء إقامته بالمستشفى يا مصطفى. سمحتُ لك بذلك رغم أنه ممنوع".

ضحـك بعـد انتهاء الجملـة مباشـرة ليُظهر لي أنـه يمـزح، كان جادًا حتـى في مزاحه، لم يسـتطع أن يُخفي إحساسـه بالتفوُّق علـيَّ. خلع عنه البالطو الأبيض وجلس إلى جواري، فتح الصندوق الصغير وأخرج منه قطع الشطرنج الخشبية، رصَّها على ظهر الصندوق، كل قطعة في مكانها المفترض.

"لا تندم على شيء".

طـارت الجُملة وكأنه يوجهها لصندوق الشـطرنج، ثـم أكمل بعد أن وجدني لا أزال على صمتي:

"لا يوجـد ما يسـتحق الندم. التفكير في أي شـيء بتركيز سـيجلب الحزن بشكل أو بآخر".

"ربما".

قلـتُ وأنـا أسـتعد فعليًّـا للتركيز فـي اللعب، فـردّ وهـو متحفز جدا لمبارزتي:

"يعتقـد النـاس أن ما مضـى من أعمارهم يمكن عودته ومحاسـبته. ينتقون من الماضي ما يناسب عمليات التجميل فقط".

أردُّ بعد انتظام الجيشين الصغيرين بيننا:

"ربمـا لأن النـاس يكتشـفون أن مـا اختـاروه في الماضـي لم يكن مناسبًا، ومن هنا يولد الندم".

يبدأ تحريك أول عسكري في الحرب:

"لا يتغذَّى الندم على ما تمّ اختياره، بل على ما تمّ تركه".

امتد الحوار قرابة نصف ساعة، هزمته خلالها هزيمة ثقيلة، قتلتُ ملكه ووزيره بعد أن أهلكت جنوده الضعفاء، لم يكن لدى الدكتور محمود الوقت ليلاعب المرضى شطرنج، ولكنه أصر على اللعب معي، خمنتُ أنه يريد التأكد من نسبة تركيزي، فقد كان ينظر إلى عيني أكثر من النظر إلى رُقعة الشطرنج، يركز أكثر عندما أقوم بنقل قطعة من مكانها، وعندما يتعلق العسكري بين أصابعي في الهواء لمدة أطول من اللازم كان يُديم النظر لحركة ذراعي كاملا وليس فقط لأصابعي التي تحمل العسكري.

"هناك خطتان في لعب الشطرنج. خطة نابليون وخطة مصطفى إبراهيم".

قالها وهو يُغلق الصندوق الصغير.

بعد أن انتهينا من اللعب قام ووضع يديه في جيبيْ البالطو الأبيض القصير وقال: "يمكنك الآن أن تُكمل الكتابة. اكتب كل ما تريد". ثم اتجه ناحية باب الغرفة والتفت إلى الآلة الكاتبة وابتسم:

"يبدو أنك تحنُّ للماضي كثيرًا".

لم أرد عليه، فقال وهو في طريقه إلى الباب:

"يجب أن أذهب الآن إلى العمليات. سأعود إليك مرة أخرى".

بعد انصرافه عُدت إلى أوراقي من جديد، فكرت في تقسيم كتابي إلى أبواب وفصول، ثم تراجعت عن الفكرة، فهل حياتي التي أريد كتابتها كانت في الأصل مُقسّمة؟ أحداث الحياة مختلطة، كلبنٍ امتزج بالماء،

من الصعب إعادته إلى العناصر الأولية، لا يمكنني التفرقة بين ما أتوقعه وما أتمناه، ولا فرق بين الماضي والحلم.

كتبتُ على الهوامش بعض مقتطفات متناثرة لا يُفهم منها غرض، ولا يمكنني العودة إليها فيما بعد. وضعت القلم على الورقة حتى صنع ارتكازه نقطة حبر في حجم حبّة عدس، وردت الأفكار متتابعة كأنها في سباق، هل يمكنني طرح الكلام باعتباره مرئيًا؟ لا تشّكل الكلمات صورة، وحتى لو حوّلتُ حياتي إلى صور بدلًا من الكلمات؛ فستحتاج هذه الصور إلى تعريف، الذي هو كلمات أيضا، وتصبح المسألة كلها كحية لفّت ذيلها فأغلقت حول نفسها الدائرة.

دخلتُ إلى غرفتي لأحتمي من لسعة برودة اخترقت ملابسي الثقيلة، أخذتُ أتابع الأفكار وهي تتبخر من رأسي وتتوه بين الأشجار، عبرتُ الزجاج الفاصل بين الغرفة والجنينة. كانت الأرضية باردة، والباب الزجاجي المُطل على الجنينة مُضببًا من الداخل ببخار الماء، وأخاديد المطر بالخارج تشق طريقها إلى الأسفل بفعل الجاذبية.

محاولات الربط بين ما أشعر به وما أستطيع كتابته كانت عملية معقدة وصعبة، فكلما استدعيتُ كلمة جرّت خلفها سربًا من الكلمات الشبيهة، واشتبكت بشكل غير صريح مع الوقائع المختلفة. أصبحت الرغبة لديّ في ترك الورق والقلم والآلة الكاتبة أكبر من الرغبة في استمرار الكتابة. وشعرتُ لوهلة بأنني أطرح أسئلة أكثر من اللازم، حتى أثناء النوم.

***

أردتُ أن أدوّن أحلامي، بالفعل، استيقظتُ من نومي وكلّي حماس لهذه الفكرة، عيني تائهة وعاجز عن النوم بشكل كامل، جفناي ثقيلان وظهري متيبس.

بعض أحلامي تقودني لمعرفة أسرار جديدة عن الحياة التي تركتها قبل النوم، أصرّح لنفسي بتلك الأسرار ولا أستطيع كتابتها. في الأحلام إشارات وألوان. كلما حاولتُ تفسيرها لا أصل لشيء محدد، كائنات الصحو تمر على مرأى ومسمع من كائنات النوم، والأحداث التي تَرِدُ في المنام هلامية وشفافة، الجاذبية أقل والطيران الناعم هو أسلوب الحركة الوحيد، والدنيا لا تدور أحداثها فوق كرة مستديرة، بل فوق بساط صغير، لا يحتاج إلى مُفسّر بقدر ما يحتاج إلى راءٍ.

توقفت عن الكتابة وغفوت، رأيتني أكتب الأحلام في الأحلام، في غمرة دار النوم، لم يكن بين أصابعي قلم، بل إن أصابعي نفسها هي التي تقوم بفعل الكتابة.

بعد مدة لا أعرف كيف مرت عدتُ إلى طبيعتي مرة أخرى، شخصا عاديا لا يستطيع منع نفسه عن التذكّر، الضروري منه والتافه سواء بسواء، لم أجد أمامي إلا صندوق الماضي، بدأت ظلال الأحداث تلتهمني، كذبابة وقعت بين خيوط عنكبوت.

لم ينقذني من هذه الصفقات الخائبة إلا مفكّرة مراهقتي الساذجة، كم أحتاج الآن إلى تلك السذاجة، أخذت أغنّي بصوت نحيل وكأنني أقلد نبرة فيروز السماوية "تك تك تك يا أم سليمان. تك تك تك زوجك وين كان. تك تك تك كان بالحقلة عم يقطف خوخ ورمان".

عادت الذاكرة تحرثُ كل ما فات في ثوانٍ، شريط متقطع يربطه خيط رفيع من رغبات لحظية مبعثرة، تشكلت في جو شديد البرودة، ومشاعر متأثرة بالوحدة والهواجس.

خطاباتنا المتبادلة أنا ومحمود لا تزال بين أوراقي، كنتُ أُرسل له خطابًا كل يوم أحد، أوراق تسافر بيننا، فيها من السلام والكلمات الطيبة أكثر ما فيها من أحداث، أكتب له ما يجري في مصر بشكل مُختصر، أنقل له أخبارًا عن خطيبته ابتسام، التي هي نفسها ابنة خالتي.

لم تختلف العلاقة كثيرًا عن هذه النغمة، ورقة مُعطَّرة وملونة مليئة بكلمات إنشائية يغيب عنها نبض الحياة الحقيقية. حتى وصلني منه خطاب مُختصر يقول فيه: "لم أُرسل لابتسام خطابات منذ شهر. ولن أعود إلى مصر قريبا. من فضلك يا مصطفى. أبلغ خالتك وزوجها أن كل شيء قسمة ونصيب، وما قدمته من مصوغات لابنة خالتك هدية مني لا تُرد".

لم أعرف سببًا لذلك التحول المفاجئ، لمدة يومين لم أستطع أخذ قرار وإبلاغ ابنة خالتي، لم أرسل له ردًّا طوال أسبوعين، ولم أستطع مواجهة ابتسام أو خالتي وزوجها. تشجّعت في النهاية وأخذت الأمر بجدية، ذهبت إلى بيت خالتي وأخبرتها بمحتوى الخطاب الأخير، المهمة الأصعب هي مواجهة ابتسام، فقد كانت تعني بالنسبة لي كوبًا من الكريستال لا يصلح إلا للعرض فقط، شيئا غاليا وثمينا لم يخلق للاستعمال الآدمي، رقيقة بشكل لا يمكن وصفه، كانت في تلك الأثناء تعبر خيالي كملاك له جناحان من فضة.

تواعدنا في "كوفي شوب" طلبنا عصيرًا وبدأتُ أمهد لها ما أود قوله.

"تعرفين طبعا أن الدكتوراه تحتاج وقتًا طويلًا في إعدادها. خاصةً لو كانت ستناقش في دولة أوروبية؟".

هزت رأسها هزة خفيفة.

"وتعرفين أيضًا أن...".

قاطعتني:

"قالت لي ماما كل شيء".

صمتُّ لدقيقة لا أجد ردًا مناسبًا، فأكملتْ:

"لم أغضب مما حدث يا مصطفى، أنا لا أغضب من شيء ما دُمتُ غير متسببة فيه".

قالت ابتسام ثم صمتت للحظات، تأملتُ الجو الشتوي المُشبّع بالخدر، مرت طفلة صغيرة خارج زجاج الكافيه، مُتعلقة بيد أمها، تعثرت الطفلة في الطريق الأسفلتي وطار ذيل فستانها الروز القصير، محاولات الطفلة لإعادة الفستان إلى ركبتيها كانت توحي بجمال خاص لا يحسه إلا من يتابع هذه الملاحظة البسيطة، وعلى الناحية الأخرى كانت الأم تسبق الطفلة، البنت تجري للحاق بالقدمين الكبيرتين، وخيوط المطر ترسم حالة مزاجية منعشة، رائحة عبق قديم تنبعث من اختلاط ماء المطر بالتراب، الأفق الأحمر المائل للصفرة يشبه غياهب الأحلام، والكلمات الدائرة حولنا لا أسمعها جيدًا، تخفت كموسيقى تصويرية خلقتها الطبيعة

في تلك اللحظة بالذات، تسللت رائحة يود خفيفة كأني أستلقي في مركب يداعبه موج خفيف، وبدأت تسري بداخلي لذة مشبعة بالخدر، في تلك اللحظة شبه الثابتة بدأت ذاكرتي تستدعي رغبتها الخاصة، حالة فردية وفريدة لا يشاركني فيها أحد، توقفت البنت الصغيرة ونظرت إليّ، جزءٌ من الثانية مرّ لكنه ترسّب وصنع تشابكاته اللذيذة، علاقات سببتها رؤية الطفلة وفستانها الروز، بهذه التفاصيل المحدودة رُسِمَ المشهد في ذاكرتي كما حدث بالتمام، كأنه تخلّق بداخلي أولًا قبل أن أراه، أمس أو العام الماضي أو منذ خمسمائة سنة، الآن فقط اكتملت أضلاع الصورة الناقصة، واكتست لحمًا ينبض بالحياة، ثم منحتُ هذه البنت اسما، فريدة.

كانت ابتسام تضع عطرًا برائحة البسكويت، وشيء ما في ملامحها يَعِدُ بسعادة قريبة، حَوَاف عينيها وردية، والحبة الداخلية حوراء وناعسة، غائرة في محجرها الأسود، أشعر بدفء جفنيها، طزاجة الجو وبراءة الطفلة وخيوط المطر المائلة ورائحة اليود الخفيفة المختلطة برائحة التراب والبسكويت صنعت في الأعماق شيئا أشبه بالسحر، لا يزول أثره بزوال مُسببه.

شربنا العصير، قامت ابتسام تأذن بالانصراف، مدت يدها، ومددتُ يدي، كانت المسافة بين يدينا ربع متر، لكنها في الروح شاسعة تحتاج لحسابات الأفلاك، التقت أطراف أصابعنا، ثم تشابكت، وأثناء سيرنا تخلخلت، أصبحت أصابعنا ضفيرة من الصعب فضّ جدائلها، في هذه اللحظة فكرتُ في ابتسام، لا كابنة خالتي التي أعرفها جيدًا، ولكن كحبيبة، كزوجة، لماذا لم أفكر فيها هكذا من قبل؟ ابنة خالتي وخريجة جامعية وتصغرني بثلاثة أعوام، أنا الذي رشحتها زوجة لصديقي محمود العراقي،

فلماذا لم أفكر فيها من قبل لي؟ لا أملك إجابة على مثل هذه التساؤلات، فما نختاره من الحياة نقطة في بحر، ويبقى البحر مُبْهمًا، إلا نقطة.

منذ هذه اللحظة بالذات أصبح لكل حركة من ابتسام معنى، الكلمة وطريقة نطقها، ميل رأسها قليلا عند التعجب، رفع حاجب واحد لحظة البهجة، عندما أركز أكثر في عينيها تُخرجني من شرود العشاق وتعمل بكفها "باي" ثلاث مرات، تبتسم وهي تقول: "ما لك. مصطفى يا مصطفى ما لك بجد؟". لا أستطيع المقاومة، أراها أجمل، أحبها أكثر، أنسى في تلك الأوقات أنها كانت مخطوبة لصديقي، وأنسى أنها ابنة خالتي، أنسى كل شيء، ما أتذكره فقط هو تلك النظرة التي تبحث عن سلام دائم مع العالم، نظرة يجتمع فيها الحنان والشجن، ينام كفها في يدي كالعصفور، كفها ينبض، رسول القلب، تركته يبيت في شبيهه الأكبر، يحتويه ويحضنه، يُقبّله ويستجيب، كان إحساسا حلوا ذلك الإحساس، الاحتواء.

بعد هذا اللقاء الأول تعددت لقاءاتنا، كل مرة لا تمانع ابتسام في استحسان تلميحاتي قبل أن ننصرف، كانت عينها الجميلة تعطيني إشارات مُطمئنة، أُعلق على كلماتها فتبتسم، أقلد حركاتها فتضحك. أعيد عليها بعض المواقف التي حكتها لي فتضحك من جديد، حتى لو كان الموقف مؤلما. ذات لقاء؛ ذكرتها بلحظة أن وضعها زوج خالتي في شنطة السيارة اللادا القديمة، تبتسم وتقول: "لا تذكرني" ثم تكمل هي ما حدث دون أن أتدخل، ارتطام الصاج بالصاج عندما أغلق أبوها باب الشنطة، الحر وقرفصتها لنصف ساعة متصلة، ثم بدأت تتخيل وهي داخل كهفها المشبع بالزيوت والأدخنة، كم عابرا في الطريق رأى أباها وهو يدفعها بيده الغليظة، وصلت إلى البيت ورأت "التحجيبة" مخلوعة، فضت اشتباك ملابسها بسبب المسامير وبروز

الصاج؛ في هذه اللحظة قررتْ أن تذهب لطبيب نفسي بسبب الخوف. لكنها خافت أن تخوض تلك التجربة، قلتُ لها: "من الآن اعتبريني طبيبك النفسي" فأخذت تقلد بالفعل نبرة مريضة وترقق صوتها.

في ذلك اليوم عرفت في ابتسام جانبا لم أكن على علم به من قبل. أن صراحتها نابعة من رغبتها هي في قول ما بداخلها، لا بسبب إلحاح من أي إنسان آخر.

بعد أسبوعين رتبنا لحفل خطوبة عائلي.

في صباح اليوم التالي أرسلتُ خطابًا لمحمود أُخبره فيه بما حدث. لم أستطع الاستفاضة في الكلام، احتوى الخطاب على كلمات إخبارية أقرب لبرقية: "صديقي العزيز محمود. بالأمس كان حفل خطبتي أنا وابتسام، حفل صغير على أضيق نطاق. أتمنى أن يوفقك الله في عملك وحياتك، وأن تعود إلينا قريبًا. تحياتي. صديقك مصطفى البحيري". رد عليّ محمود بخطاب من كلمة واحدة "مبروك". انقطعت بعد ذلك المراسلات، ثم شيئًا فشيئًا خفتت الصلة بيننا ورقّت الشعرة التي كانت تربطنا، حتى أنني لم أعرف بوصوله إلى مصر وحصوله على الدكتوراه إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، عندما قدّمت لي ابتسام ذات صباح جريدة الأهرام، قرأتُ نعيًا لأبيه الحاج سعيد العراقي، وعرفت من سياق منشور النعي أن محمود أصبح دكتورًا، وأنه افتتح مُستشفى خاصا بمنطقة هليوبوليس اسمه: "الرحمة حياة".

تغيَّرتُ كثيرا خلال هذه الفترة، وتغيَّر كثيرًا.. هو أيضًا.

***

سمعت صوتا من خلفي، التفتُّ فرأيته يخلع النظارة ويفرك عينه:

"صباح الخير".

يقول محمود ثم يسحب كرسيَّ خيزران ويجلس أمامي:

"هل كتبتَ شيئًا؟".

لم أرد على السؤال، فكرره مرة أخرى:

"هل كتبتَ شيئًا بالأمس؟".

انتبهت وقلت بسرعة مُبَالغ فيها:

"لا. لم أكتب شيئًا مهما حتى الآن. لكن الدفاتر كلها جاهزة في رأسي".

وقف محمود أمام الباب الزجاجي ونظر إلى الخارج، رفع رأسه إلى غُصن عالٍ:

"كُلّنا لدينا مثل هذه الدفاتر يا مصطفى، لكنها دفاتر لا تمثل شيئًا له معنى. كأكوام الرمال قبل تشييد بناية. أنا أسألك عن البناية لا عن الرمال".

سرنا في الجنينة قليلا، رفع رأسه لأعلى دون سبب واضح، نظرتُ إلى مرمى بصره، صرنا وكأننا نتابع حدثًا واحدًا:

"سأبدأ اليوم في استعادة الكتابة. بعد ساعة على الأكثر".

قطرات سقطت من الأغصان على البالطو الذي يرتديه محمود فلوَّثته، قام ينفض ملابسه من أثر البقع الطينية، اتجه إلى حيث جاء، كانت إحدى قدمي تدوس في الطين، والأخرى تتحسس طريقها.

عدنا إلى الغرفة.

بعد سرحان دام طويلًا بمقاييس الانتظار سألني محمود:

"هل تواجهك أي مشكلة يمكنني مساعدتك في حلّها؟".

لم أرد، رفعتُ رأسي عن الأوراق، وأنا لا أنظر إلى شيء محدد، أدرك محمود سرحاني، فغير السؤال إلى اقتراح للمساعدة:

"يمكنك أن تعرض عليّ ما كتبت. إن كان ذلك لا يضايقك طبعًا".

شبكتُ أصابعي ومططت ذراعي للأمام:

"المشكلة الأزلية ليست فيما وصل إلى الأوراق، ولكن فيما لم يصل".

خلع محمود نظارته ووضع ذراعها بين شفتيه:

"حاوِل. مجرد محاولة، أكتب ما تريد على شكل عناوين رئيسية".

"وإذا نسيت العناوين الرئيسية؟".

"علّمها ببعض الرموز المُصاحِبة".

"وإذا نسيت الرموز المُصاحبة؟".

أشعل محمود سيجارة، ارتعشت يده وهو يسحب نَفَسًا طويلًا، وصلت النفاية إلى منتصفها دون أن ينفضها، وقعت على البالطو الأبيض:

"اجعلني أنا الرمز".

"أنت الرمز؟".

"ستُعلّم الوردة بذكرى ما، اُكتب في الورقة وردة، وامنحني أنا ذكراها. فإذا رأيت بعد ذلك الوردة ونسيت الذكرى سأمنحك أنا ما أودعتني إياه. أي سأردُّ إليك أمانتك".

لم أُبدِ حماسة كافية لما يقول.

رمى محمود السيجارة وفعصها بحذائه حتى غاصت في الطين:

"ألا تثق بي؟".

تذكرتُ أنه لم يكن يدخن من قبل:

"أثق. ولكن...".

"إن كنت لا تثق بي فهناك أطباء ممتازون. يمكنني أن أرشح لك أفضلهم ليجري لك العملية".

ثوانٍ من الصمت مرت بطيئة كأن الوقت لا يمر، لم يجد محمود أي إضافة على ما قال، وأنا مازلتُ أبحث عن رد مناسب. اندفعت تجاهه وأنا أبتسم:

"هل تشرب قهوة؟".

"ربع ساعة فقط وسأنصرف".

مشينا ببطء، أخذنا نلف في الغرفة كأننا نبحث عن شيء مفقود أمامنا، أو بداخلنا، جلس على كرسي المكتب. أخرجتُ "السبرتاية" من تحت سريري، وضعت الكنكة فوق نار هادئة ثم جلستُ على السرير.

كنتُ أنظر إلى محمود في صمت، وهو أيضا، لم أعرف قبل هذه اللحظات أن الكلام مُطَمْئن، وأن الخوف كله يكمن في الصمت، خاصة عندما يطول وتُستبدل به نظرات ثابتة، الوقت لا يمر، البرودة بالخارج ونظرات محمود الثابتة بالداخل شكّلت ما أشعر به الآن، حالة غير مفهومة.

أشجار البرتقال في الجنينة تقطر من أثر المطر، أكاد أسمع ارتطام القطرات بالأرض، أراها وهي تسقط من رؤوس الأوراق الخضراء.

قلت له لأقطع الصمت:

"يمكنك قراءة الأوراق التي أمامك. فلا أسرار فيها".

عندما وصل صوتي إلى محمود لبس نظارته ورفع أمام عينيه الأوراق بلامبالاة، كأن ما فيها لا يعنيه، مرر عينه ببطء على السطور، قلّب القليل من الصفحات، ثم وضع رُزمة الأوراق كما هي فوق المكتب.

شعرت بسعادة غامرة لمجرد أنني خبأت عنه أوراق الآلة الكاتبة السحرية، ووضعت أمامه الأوراق التي كتبتها سابقا. قلّبت البُنّ على نار السبرتاية الهادئة، لم أكن أبالي بما يفعله بأوراقي، لاحظت أنه انصرف عن المكتب ووقف ينظر من الباب الزجاجي، رفع رأسه لأعلى كأنه يتابع سرب طيور يعبر السماء:

"لماذا تركتَ الأوراق. ما جاء فيها ليس شيقًا. أليس كذلك؟".

لم يرد.

"لا يوجد في الصفحات المكتوبة ما تبحث عنه، لا يوجد أثر لأي ذكريات مع ابتسام".

اضطربت عيناه وظل يلبس النظارة ويخلعها دون مبرر، ثم وضع يديه في جيبيْ البالطو وأخرجهما، دوّر القلم بين أصابعه في توتر.

"تفضل القهوة يا دكتور".

مد يده وأخذ الفنجان بسرعة، بدأ يرشف منه رشفات سريعة مُرتعشة قبل أن يرد، كلما ازداد توتره بالغتُ في إظهار ثباتي بشكل أكبر وأنا أرشف من فنجاني، أتحدث إليه بعقل صافٍ ونصف ابتسامة ثابتة.

وضع محمود فنجانه بعد أن شرب نصفه، قال:

"أنت تُجيد عمل القهوة. فنجان ممتاز".

اقتربتُ منه وتأملت عينيه الحائرتين، قلت:

"وخالٍ من السمّ أيضًا".

بُهت محمود وظل لثوانٍ مُعلقًا نظره على فنجانه الذي فرغ لتوه من شُرب نصفه. ربّتُّ كتفه:

"لا تأخذ كل كلامي بجدية، فذاكرتي المريضة تمزح معك".

أراد الانصراف من الغرفة بأقصى سرعة وبأي طريقة، تعثرت أصابعه مرارا قبل أن تتلاقى مع "أُكرة" الباب الخزفية، بسرعة البرق انصرف، تاه بين أشجار البرتقال في ثوانٍ معدودة، حينئذ فقط شعرت بانتصار مؤقت.

***

ما تركّز في ذاكرتي كان أقوى مما حدث فعليا، طعم البُن لا يزال في فمي، تفاعلات داخلية لا أعرف مركزها تطلب القهوة من جديد. أريد قهوة. ستضرك، أريد قهوة. ستموت. لا يهم. أريد قهوة. الرغبة أهم من الموت.

وتأتيني التفاصيل من حيث لا أدري، أنقر على الآلة الكاتبة مرة أخرى، أنقر بسرعة، وعنف.

قبل أن يترك أبي الدنيا بشهرين أصيب بجلطة محدودة في المخ، بضع قطرات كسولة من الدم سدت حزمة شرايين بشكل عشوائي، محت من طريقها بعض ملفات في دماغه، أختي حسناء هي أول من نبهني لذلك العطب الجديد، عندما حاول الحديث معي بعد إصابته كنتُ أجتهد لفهم كلمة واحدة من الجملة التي ينطق بها، تتساقط الكلمات من فمه، لم يجد سبيلا في نقل ما يريد إلا بالبكاء. زارنا بعض الجيران للاطمئنان عليه، طلب أبي للضيوف قهوة، كانوا خمسة رجال، سألناهم عن قهوتهم، لم يكن بينهم شخص واحد يشرب القهوة، تخرج أختي بصينية الشاي ويقابلها أبي عند باب المطبخ فيطيح بالصينية من يدها، يقول بصوت خافت مخنوق تاهت فيه مخارج الألفاظ: "قهوة يعني قهوة. قهوة يعني قهوة" يكررها لأكثر من عشرين مرة، وتناديني حسناء بالداخل: "ما العمل؟" أقترحُ عليها أن تصب للضيوف الشاي في فناجين القهوة ليمر الموقف على خير، فعلت أختي ما طلبتُه منها، فوقف أبي وهو مُتحفِّز بشكل أكبر. عندما دخلت بالصينية قام من مجلسه، نظر في الفناجين ولم يجد لها هيئة القهوة، ثار وانتفض بدنه بالكامل، قال وهو يضحك

ضحكة مخيفة: "شـاي في الفناجين يا ولاد. شاي. شاي". كررها بشكل يوحي أن مخه فرغ من كل شـيء عدا هاتين الكلمتين، ثم رفع فنجانًا من فـوق الصينية ودلقه على الأرض، وعندما رأى الثُفل هاج وأخذ يسـحبه بإصبعـه من الفنجان ويلقي به على المنضـدة، وعاد يقول بطريقة أعنف: "قُلت قهوة يعني قهوة. قهوة يعني قهوة".

كانت سـيرة أبي برغم مرضه المفاجـئ مليئة بما يلزم لعناصر الحياة، أمـا حياتـي فقوامها شـذرات متفرقـة، معلومات تحوم حول رأسـي ولا أسـتقر على واحـدة، معلومات متناثـرة من جوجل وفيس بـوك، ملايين الحبيبات من رمال فشلت في تكوين جزيرة، فأصبح مصيرها الغرق.

لبعض دقائق توقف كل شيء في رأسي، كأني مستيقظ ما زال يخضع لسلطان النوم.

كطفل لا يكترث إلا بما يلفت نظره فحسب عدت إلى آلتي التي تبتلع أفكاري، تابعتُ شـريط الأحداث في رأسي، لم أعد أهتم بعملية الترتيب الزمني لما حدث. تحمل حسـناء طبق نابت تسـبح فيه ملعقة. وأبي نائما في سريره ذات صباح، يلوّح بإشارات لا أفهم منها غرضا، تستكين ذراعه على وسـادة إضافية، أجلس بجواره، تجاهد ملامحه للتعبير عن شيء لا أعرفه، ثم يروح في غفوة. يسحب شخيرا متقطعا، ضعيفا، كنقيق ضفدع بعيد، يفيق مرة أخرى ويمسـكني من كتفي. لا أفهم منه إلا كلمة واحدة: "هَـوْنْ" تصيبـه بعد نطقها رعشـة، ثم انتفاضة تهز كتفيـه بالتبادل، يضم شفتيه كأنه يتأوه من شيء داخلي، ثم ينام، أقتربُ منه، كان هامدا، لا حس ولا نفس، تقف أختي أمام السـرير بطبق النابـت، ثم تتركه وتجلس لتقرأ

القرآن. المصحف يرقد في حِجرها. يقع طبق النابت. ويظل المصحف مفتوحًا على سورة تبارك.

لم أصدق أن ما كنتُ أراه يحدث للناس يمكن أن يحدث لي، الأشياء السيئة دائما تحدث للآخرين. هذه الفكرة دائما تجد ما يُغذّيها.

الكلمات تضلل أكثر مما تدل، هذا ما شعرت به الآن.

تهرب بعض الأفكار كلما أردت الإمساك بها، حاجز كبير يقف بين الكلمات المكتوبة والصوت الإنساني، وفرق آخر بين الصوت وبين الشعور بمعنى ما يُقال.

ضاق الوقت كأنه عربة مُسرعة تجري من خلفي، وليس عليّ سوى الهرولة أمامها بأقصى ما أستطيع.

حطّ سرب من العصافير حول رغيف جاف كنت قد نسيته في الجنينة، المناقير الصغيرة تصنع في الرغيف حُفرًا بحجم حبّة قمح، ثم تنتظم في سربها مرة أخرى. برودة الجو تغالبني، التقطتُ الرغيف وتأملته، مئات النُقَر الصغيرة محفورة فوق سطحه. أدخل به وأجلس القرفصاء، أُقطّعه نتفًا صغيرة في حجم حب الترمس، ثم أنزع ورقة من رزمة الورق الأبيض التي أمامي وأضع عليها قطع الخبز الصغيرة، أخرج بها مرة أخرى، أقف فوق المنضدة وأضع الورقة مُحكمة بين غصنيْ شجرة برتقال. ثم أنزل ويظل عُنقي معلقا أتابع ورقة الخبز، الوجبة الطائرة، يتجمّع سربٌ آخر من العصافير، تستقر رحلته بالقرب من الفتات، تحط المناقير الصغيرة على محتوى الورقة، أدخل وأنا أنفخ كفي من البرد، أعود كما كنتُ،

أتابع إطعام الطير الأخرس دون موعد سابق، يخفّ وزن الورقة وتقع بين أغصان الكافور.

فيما أنا مندمج مع الطيور دخل محمود الغرفة، كان أكثر بهجة وإشراقًا عن ذي قبل، لم يعد في حاجة لرن الجرس، كأنها أصبحت غرفته. جلس على السرير ووضع لفافة ورق ملون بجواره:

"نتيجة التحاليل الأخيرة مُطمئنة يا مصطفى".

ابتسمت وقلت:

"ستقوم بإلغاء العملية إذن؟".

يقترب ويردّ بودّ ملحوظ:

"لو كان الأمر بيدي لألغيتها بالطبع".

"هل ستُجري العملية مجانًا؟".

يقول:

"بالطبع لا".

وأتردد قبل أن أسأله:

"ما الثمن إذن؟".

يتأملني لمدة أطول من اللازم ويقول:

"سنتكلَّم عن التكاليف بعد العملية".

وأرد:

"ربما أنسى العملية. وأنساك أنت والتكلفة وكل الكلام الذي اتفقنا عليه".

يفضّ محمود اللفافة، الورقة تحمل اسـم محل الفاطمي للحلويات، كانت صنفا واحدا فقط، هريسة. قدّمها الدكتور وهو يشيد بأصالة المحل وحرفيته في عمل الحلويات الشرقية:

"لا آكل الحلو إلا من عند الفاطمي. خذ".

تناولتُ منه القطعة وأخذت أمضغها ببطء من يتجرع دواءً مُرًّا:

"من الذي قال لك إن هذا هو الحلواني المفضَّل لي؟ ومن قال لك أيضا إنني لا آكل من الحلويات كلها سوى الهريسة؟".

قبل أن يدسـها في فمه وقعت قطعة من يده وطبعت بقعة سـمن على البالطو الأبيض:

"وفيم تُفيد مثل هذه الأسئلة يا مصطفى؟".

أعدتُ ما تبقى من القطعة إلى الطبق الكرتون:

"أسئلة تُجيب عن أسئلة".

يرد محمود:

"لا أرى أي فائـدة مـن الإجابة، وبرغم ذلك سـأجيبك، تقع شـقتي فوق حلواني الفاطمي مباشرة. وأتعامل معه منذ أن عُدتُ إلى مصر".

مَـرَّ طيـفُ ابتسـام سـريعًا أمامي، مـلأت الغرفـة بحجمهـا وصوتها، بصمتهـا ورائحتهـا، بسـنّتيها المفلوجتيـن عنـد منتصف فمها، بشـعرها

البدائـي القصيـر، ونظارتهـا حديثـة الالتصـاق بوجههـا. هـذا الحلواني بالـذات هـو المُفضّل لابتسـام، كثيـرا ما ذهبـتُ معها لشـراء الحلويات مـن هناك، كنـت أدخل لأدفع الفاتورة وتقف هي بالخارج، تحت شُـرفة محمود، وأحيانا كانت تذهب وحدها.

تنـاول محمود قطعتين ثم وضع ما تبقى على المكتب. رفعتُ الورقة بمحتوياتها ووضعتُها في مستوى يده:

"لا أحب الحلويات كثيرًا".

"يمكنك أكل ما تُريد الآن. لكنك غدا يجب أن تمتنع عن كل أنواع الطعام".

يقف محمود ويدق الأرض بكعبيه دون مبرر، يسـحب شـهيقا ويرفع رأسه لأعلى ويقول:

"مصطفـى.. أريدك أن تتأكد من شـيء واحد. أنك صديقي الوحيد تقريبًا. وأنني أخاف عليك جدًا".

لـم أرد، فمثـل هـذه الكلمات التـي يقصد بهـا تهدئتي توترنـي أكثر، ترعبنـي مـا دامتْ تُقـال بهذه الصيغة؛ من المؤكد أن عكسـها هـو ما يمرّ في رأسه.

يخرج محمود دون أن أراه، كان عقلي يهجس في كل الأحداث التي أراها أمامي، لا أستبعد منها أية تفاصيل، حتى ولو بدت تافهة.

***

دخلتْ الغرفة ممرضة شابة، سحبت عينة دم من ذراعي بعد أن ربطته بسير جلدي، لمست أناملها بشرتي فشعرتُ بأحاسيس كنتُ قد أوشكت على نسيانها، ابتسمتُ لها، ثم استعدتُ وقاري فجأة، عندما ابتسمت لم أرَ إلا جمالها، وعندما استعدت وقاري تذكرت أنني في ضعف عمرها على الأقل.

تركتْ الممرضة الغرفة، ولم تترك بعض الأفكار المصاحبة رأسي.

ساعات قليلة وأخرج للصباح، أو يخرج إليّ، سأرى ابتسام مرة أخرى.

بالغتُ في إظهار وسامتي، رتبتُ المكان بما تيسر من جهد، أحضرتُ حذائي ولمعته، صففتُ شعري وأخذتُ ألقي مخلفات الأوراق تحت الكرسي، بحثتُ عن مكان في الجنينة يمكنني أن أقطف منه وردة، تعطرتُ وعطرت ملابسي.

تجمد الزمن عند هذه اللحظات، عرقٌ باردٌ ينساب ورعدة تبدأ عملها ببطء، كنت خفيفًا، بلا وزن تقريبًا، مُكوّنا من هواء، أشعر بأنني داخل لتوي في إهاب حلم، شمس ديسمبر بالكاد تُلوّن أرض الجنينة، ورائحة البرتقال تملأ الهواء بنسيم دافئ مشحون بالعاطفة.

ذهني لا ينشغل بأية حسابات مُسبقة. وذاكرتي لا تعمل وفقًا للخيال الواعي. ما سهّل عليّ تسجيل أفكاري أن الكلمات هي أداة وظيفتي الرئيسية، في بداياتي الصحفية كنتُ أبذل مجهودًا كبيرًا في ترميم مقالات الغير وجَعْلِها صالحة للنشر. لم يكن لي أصدقاء حميمون، ربما يعني

ذلك أنني لا أجيد مجاراة الناس، ولا أجيد أيضا فن الحوارات المُطوَّلة عن أحوال السياسة والمعيشة، فآوي غالبا إلى كُتُبي، أرشيفي في الحياة مجموعة كبيرة جدا من المُقابلات والحوارات مع الفنانين والمجرمين، في البداية لم يكن يُكتب اسمي تحت التحقيقات التي أعدّها.

عادت لسعة برد بِنْجية تضرب عمودي الفقري مرة أخرى، رعشة لذيذة استدعتْ معها جزءًا آخر مقطوعًا من شريط حياتي.

الشمس تُقوِّض أصوات الليل وهواجسه، تنتشر أشعَّتها فتخفت الكائنات المُتصَوَّرة التي شكَّلتها الوِحدة ونسجها الظلام.

جرس التليفون الداخلي للغرفة، أرفع السماعة وأسمع صوت الطرف الآخر محمّلًا ببهجة شتوية:

"ابتسام".

رتبتُ سريري على عجل، لمحتُ شعري المُشّوش في المرآة، مشطته بيدي، حملقتُ أكثر في ملامح الصورة المنعكسة أمامي.

تدخل ابتسام بفستانها الروز وشالها الليموني، أول ما لمست قدمُها أرض الغرفة حددتْ هدفها بسرعة، لم تصافحني باليد، ارتمت في حضني دون مقدمات كلامية. خلعت نظارتها ووضعتها بجوار أوراقي، حدقت في وجهي، أخذت نفسًا مُتبسِّمًا عميقًا ثم زفرته، ظهرت سنتاها المفلوجتان، تأملت الغرفة ودققت النظر فيما حولها ببطء.

ما زلت أندهش بملاحظة الأشياء الجديدة، نظارة ابتسام:

"إطار النظارة الموف يليق بكِ".

"اخترت اللون الذي تحبه".

لم أتذكر جيدا إن كنت أحبه أم لا.

تُخرجني من شرودي، تقترح عليّ أن أترك المستشفى ولا أعود إلا في الغد، عندما يحين موعد الجراحة.

لفّت ذراعيها حول عُنقي، تشممتُ عطرها المختلط برائحة جسد أعرفه جيدًا، وقبل أن أفكر في شيء خاص بهذه الروائح قالت:

"مرّ يومان وأنت محبوس بين جدران هذه الغرفة. الشتاء خارج بوابة المستشفى أجمل بكثير".

تحاول ابتسام قراءة نظرات عيني المُجهدة، وأنا أحاول أن أستشفّ الأفكار التي تمر برأسها دون أن أسألها، فقط أتجوّل في ملامحها. أخشى أن تصبح ابتسام في ممرات الذاكرة مجرد رمز، بدأت الأشياء من حولي تفقد أسماءها الأصلية بسبب التركيز الشديد فيها.

ضمت شفتيها وأرسلت لي قُبلة في الهواء، عبَر تيار هوائي خفيف ذوّبَ أفكاري. اقتربت مني وجلست على حافة كرسي الفوتيه الأخضر، بدت كمن تريد الانزلاق في حجري، زوجة جميلة تتدلل ورائحة عطرة تنتشر، جسد ليّن ورغبة طيّعة، رائحة البرتقال المنداة بمياه المطر، ريح خفيفة تفتح بابا للرغبة وتبدأ في السريان عبر أوردة خفية أحسّها ولا أراها، لا تنبع من المخ أو الذاكرة، لكن مركزها الرئيسي في بطني، رعشة حُلوة تتسلل بخفة إلى جنبي الأيسر، أخذتْ تسري حتى تجمّعت من سرّتي إلى صدري، ثم تسلّقتْ عنقي برفق، واجتاحتْ منابت شعري كطوفان مباغت، ثم انتشرت

على خريطة جسدي بالكامل. بدت ابتسام أكبر من حجمها الطبيعي، حاولت أن أحملها بين ذراعيْ مرتين وفشلتُ، مشتْ على أطراف أصابعها حتى توهمني بأنني أرفعها عن الأرض.. بالفعل، استجمعتُ كل قواي وأنا أحملها من الفوتيه إلى السرير، طرحتها فاهتز السرير، لم تبق لي أية مساحة لأُعمِل فيها عقلي أو أستمع لصوت ذاكرتي الزنَّانة، جذبتُ مشد الستارة فأظلمت الغرفة، ولأول مرة منذ مجيئي يتوقف الزمن، يتوقف تمامًا.

***

رتبت ابتسام كل ما قابلها، نسّقت زهورًا كانت فوق المكتب الصغير، رصت الفناجين وعدة القهوة، أمسكتْ بالأوراق التي نقرتها على الآلة الكاتبة دون شريط الحبر، سألتني:

"أوراقك لا تزال بيضاء؟".

مثل محمود، لم تر ما كتبت، تنفستُ بارتياح عند سماع تلك الكلمات، فلم تكتشف سر الكتابة بعد نزع شريط الحبر، كان اختراعا ممتازا، الأوراق قريبة جدا منها ولا ترى الكلمات المحفورة، ذلك يعني أن خطتي نجحتْ.

كنا كسالى بشكل ملحوظ، نتكلم عن أشياء متفرقة لا يربطها إلا ذاكرتنا الجمعية. حدثتني عن أمور الحياة المعتادة، وأنا أرد عليها مثلما كان يحدث طيلة السنوات الفائتة. جلستُ على كرسي الفوتيه مرة أخرى أرصد ملامحها. قطع صوتها تأملي: "ما رأيك في أن نخرج، نتجول في الشوارع المغسولة بالمطر ثم نعود؟".

توقفت أصابعي قبل أن أُدخل آخر زرار في عروة القميص، تُذكرني كلماتها بأننا تزوجنا ذات شتاء، وتذكرت من جديد "ذات قبل مرضي" كنا نمشي طويلا تحت المطر، نختبر قوته برؤوسنا العارية، ونختبر حُبنا بالصمت والنظرات المُتبادلة.

شدّتني ابتسام من يدي كطفل عنيد لا يريد أن يسمع الكلام، لبستُ حذائي وأنا على عتبة الباب الزجاجي المُفضي إلى الجنينة، لم تُمهلني فرصة للتفكير، ولم تعطني أي إمكانية للرفض، غاص كعب حذائها في العشب الطري، تعانقنا طويلا بين ثمار البرتقال المتوهجة كالمصابيح فوق الأغصان، ذراع ابتسام يتشبَّث بكتفي، اشتد سقوط المطر، تسللتْ مشاعر مُبهجة تحت جلدي، سرعان ما تدفقت موسيقى داخلية يعلو صوتها شيئًا فشيئًا، كأن هواءً نقيًا يدخل غرفة طال غلقها.

اقتربنا من عامل يحمل دلوًا مليئًا بالبوية، يمسك فرشاة ويلبس "عفريتة" زرقاء ملطخة باللون الأبيض. كان يدهن السور الداخلي للجنينة، هل سأتذكر هذا الرجل بعد أن أخرج فاقد الوعي وممددًا فوق الترولّلي؟ قبل أن أجد إجابة عن سؤالي ابتسم الرجل ابتسامة صافية اقترنت في مكان ما برائحة البرتقال، ستُضيء هذه الابتسامة فيما بعد مثل ومضة، ستكون مشحونة بالمناخ نفسه بعد ألف سنة، سترتبط برائحة "البوية" واللون الأبيض، هل تستطيع ابتسامته وحدها التمييز بين الأخضر الزرعي والأخضر الداكن؟

أوقفت ابتسام تاكسيا. "الكورنيش" قالت للسائق، توقَّف وركبنا، طوال الطريق كنتُ أشعر كأنني أستقل مركبة فضائية، الأشجار تمر والأسفلت

يُطوى والناس يعبرون من حولنا. في جاردن سيتي أشارت للسائق بالوقوف، نزلنا ومشينا مدة طويلة حتى وصلنا إلى شارع قصر العيني، كنا نسير بلا هدف واضح. قطعنا طُرقًا واجتزنا شوارع، أسير بطيئًا مع ابتسام تحت المطر الذي يزداد تدفقه. نهر الطريق يموج بالسيارات، الرصيف المحدود مغسول ولامع. وأعمدة الإنارة ضوؤها مخنوق على الجانبين.

غابت الشمس وبدأ الظلام يزحف على الممرات والشوارع، مئات المصابيح المضيئة تقطع الطريق. وخيوط الأمطار ترقص فوقنا كلحاف قطيفة يرتعش. خفّت قدما ابتسام عن الأرض، كانت متعلقة بكتفي، المطر يغسل الطريق الأسفلتي ويستدعي مع سقوطه أحداثًا متفرقة، وقائع مرت عليها عقود تطفو وتطفو حتى تعوم على السطح. تتجاوب الأحداث القديمة مع قطرات المطر الفضية التي تغمر الأرض وتغسل الأسفلت. تطوف الكلمات في رأسي، تقع عليّ من أماكن غير مرئية، أمامي الآن إعلان المارلبورو المُضيء، شُرفات السفارة الأمريكية وبوابات مجلس الشورى. تتقافز صور متنوعة لا يمكنني الإمساك بها.

تشير ابتسام إلى لافتة مضيئة. فندق كليوباترا، أشعر كأنني قرأت هذا الاسم من قبل. أنظر إليها وأبتسم ابتسامة بلهاء لا معنى لها، ماذا تقصدين؟ يظهر الشق المفلوج بين سنتيها وتقول:

"الفندق الذي قضينا فيه ثلاثة أيام عسل".

شبكت ابتسام أصابعها في أصابعي على طريقة العشاق.

أتذكر، وأحزن، وأصمت، وأفكر دون كلام، هل جاءت ابتسام إلى هنا لتذكرني بفندق كليوباترا؟ سرحتُ حتى وصلنا إلى ميدان التحرير، كان

المقهى الذي توجهنا إليه كامل العدد، فتجولنا بين الشوارع المغسولة ببطء المتسكعين وشرود مَن غلبه التعب. أخذتُ أعد حجارة الرصيف، أستثني منها ما ليس مدهونًا، استوقفني الرجُل الذي كان يطلي سور الجنينة الداخلي منذ قليل، ما الذي أتى به إلى هنا؟ كان يلبس عفريتة بيضاء، وحذاءً بلاستيكيًا أبيض، يضمد يده اليسرى بشاش أبيض، مربوط بلاصق طبي أبيض، تركنا مجال الرجل بدلو "البوية" والفرشاة، كنتُ ألفُّ عنقي وأتابعه، الرجل يفصل بفرشاة صغيرة بين اللونين الأبيض والأسود، أعود وأقترب منه مرة أخرى:

"لماذا تركت سور المستشفى وجئت إلى هنا؟".

ويتعجب الرجل:

"مستشفى. أي مستشفى يا أستاذ؟".

أتأمله جيدا، هو الرجل نفسه الذي رأيته في المستشفى منذ ساعة، ملامحه ونظرته وطريقة قبضه على الفرشاة:

"كُنتَ تدهن سور المستشفى منذ قليل. كيف جئت إلى هنا وبدّلتَ ملابسك بهذه السرعة؟".

تتوقف الفرشاة في يده عن طلاء الرصيف:

"أنا بهذه الملابس أصلا، بداية الوردية منذ خمس ساعات".

تقترب ابتسام:

"يشبهه فعلا يا مصطفى. لكنه ليس هو".

وينظر الرجل إلينا كمن ينظر عاشقين مجنونين. يمسك الفرشاة بيده وبيده الأخرى مرفوعة لأعلى. معلقة ومربوطة بلفائف شاش في حجم قفاز ملاكمة.

ابتعدت وتبعتني ابتسام. والرجل الذي يلبس العفريتة يبتعد و ويصغر حجمه.

مرت فترة تبدو طويلة. رغم خروجنا من المستشفى منذ ساعة لم تتركني يد ابتسام طول الطريق.

أخيرا وجدنا مكانا خاليا في مقهى داخلي. المقاهي في الشوارع الرئيسية مزدحمة وصاخبة برغم البرد. وعين ابتسام تتابعني أينما أنظر. لا شيء يمكن أن يمحو الطبيعة العاطفية. لم تسمع ابتسام هذه الجملة التي لم يلفظها لساني. هل قلت ذلك أم أن الكلام عبر رأسي فقط عن طريق أحبال صوتية صامتة؟. كنت أسأل بعض الأسئلة مرتين. كانت وهي أكبر حجما. ابتسام الجالسة أمامي تبدو كنموذج مصغر ترقد في رأسي، كأثر قديم أكسبته الأيام قيمة أكبر من حقيقته.

كانت الجموع الهاربة من المطر تتدفق عبر ميدان التحرير، يجلسون داخل المقاهي، يشاهدون انهمار المطر الذي تداعبه الريح. يقول أحدهم:

"السماء تمطر ثلجا".

ويرد عليه صوت أبحث عن فم صاحبه:

"نعم إنه ثلج".

ثم تصمت الأصوات.

أجلس وبجواري ابتسام، أتابع خيوط المطر المائلة أمام ضوء الأعمدة الكريتال السوداء، يبدو المطر النازل مغلفا بلفائف من دخان، الناس يموجون كأخطبوط بحر كبير لا يهدأ عن الحركة، تتغير بشكل مستمر مواضع أذرعه. تدور هذه المظاهر المناخية في خيالي بلغة براقة، أمد يدي لأسحب الورقة والقلم، فقط أمد يدي دون أن أُخرجهما، كانت اللغة البراقة تتحول بقدرة غريبة إلى لغة عادية، وربما سطحية. اختلاط الأحاسيس كان يُشبه في لحظات معينة عمى الألوان.

طلبنا شايا، أثناء الرشفة الأولى بدت خطوط أحداث جديدة تتشكل أمامي، سمعتُ أصواتًا وشممتُ روائح، وتذكرت، كنا في بلكون بيتهم القديم، أنا وابتسام، تجلس في مواجهتي، بيني وبينها نصف متر ومنضدة صغيرة، ركزت عينها في عيني، ثم نقرت بأصابعها المنضدة وأخذت شهيقا طويلا، ارتكزت أصابع قدميها تحت المنضدة برفق فوق أصابع قدمي، كانت تبعدها وكأنها لا تقصد، ثم تعيد لمسي من جديد، كررت هذه الحركة مرتين، فارتجفت، وضرب الدم كل أوصالي، شكلت هذه الحركة لغة غرامية بيننا، "سيم"، تصالحني به عندما أغضب، وتذكرني عندما تفتر همّتي العاطفية.

لم أتمكن من الفصل بين دقات قلبي وشعوري بالاضطراب، لذة مبهجة حقنت عمودي الفقري، القلب لا يحب ولا يكره، مجرد موتور تتغير حركته وسرعته تبعا لقوة أو لبطء التيار الكهربي المدفوع إليه.

تركتُ كوب الشـاي حتـى توقف حوَمان البخار فـوق فوهته، ركزت في نظرة ابتســام، رأيت حيرة حقيقية، لم يكن المرض مُرهقا لي وحدي، بل يستهلك مساحات كبيرة من تفكير المحيطين بي أيضا.

ضــاق عالمـي وتقلّص حتى أصبـح مختصرًا في طعم الشـاي ونظرة ابتسـام وضغـط قدميها فـوق قدميّ تحت المنضدة، شـعرتُ بلسـعة برد تسللت تحت جلدي، اجتاحتني رغبة قوية في الصمت، عندما تقلّ رغبتي في الكلام أشـعر بخطر حقيقي، عندما أبحـث عن الكلمات ولا أجدها، نُدرة مباغتة ثم نضوب تام، ثم ينفتح شـلال متدافع أكثر مما يجب، فأرى موضوعات كثيرة تفتقد للترابط. الكلمات أصبحت تتسـاقط من لساني، تترنح ثم تقع بين جمل غريبة مرتبطة بموضوعات أخرى.

بذلت اليوم مجهودا مضاعفا، أي شُـبهة صُداع يضرب رأسـي أحيله لمرضـى المكتشـف حديثـا، برغـم أن الصــداع قديم جدا، أقـدم من أي مرض، ومن أي اكتشاف، وأتخيل لوهلة أن الصداع مرتبط أكثر باكتشاف الكلام.

أنا لست أمـام الدكتـور محمود لأتذكر ما نسيت، ولسـت أيضا في بلكون خالتي القديم، فالبلكون هُدم مع البيت منذ أكثر من عشر سنوات، الآن أنا أجلس مع ابتسام في مقهى، والمقهى في ميدان التحرير.

أشـعر بدوار شـديد، يتوقف الصخب من حولي، أصـوات الأكواب فوق المناضد المعدنية الصغيرة، وزهر الطاولة داخل الصناديق الخشبية، القهقهـات بيـن الأصدقاء والهمسـات بيـن المحبين، توقـف كذلك نقر

المطر للأسفلت، حتى ابتسام، تتحرك شفتاها دون إخراج صوت، أصبح العالم من حولي كتليفزيون انتُزعت عنه السماعات.

***

ميدان التحرير، الرجل والرصيف، خيوط المطر، ابتسام تجلس على كرسي المقهى وتبلل أصابعها بالقطرات الساقطة، تنظر إلى المارة بتأمل بطيء.

لا أدري هل قلت هذه الكلمات أم مرت فقط عبر الخلايا المخية دون صوت ظاهر؟

ضوء خفيف أول ما رأيت، يخترق ستائر ثقيلة بلون الرخام، يعطي المكان إحساسا بمشاعر الأحلام، الأخضر الليموني يمتزج مع البرتقالي الداكن، وصوت نقر شاشة تليفزيونية منتظم يتسلل إلى أذني، أفتح عيني فأرى كرسيين، تتضح الملامح المشوَّشة ببطء، محمود يسترخي على كرسي، وابتسام تجلس على الكرسي المقابل.

في البداية، لم أعرف أين أنا، من الذي جاء بي إلى هنا، ما الوقت والتاريخ؟ هل ذهبتُ إلى برزخي الخاص، أم أنني لا أزال فوق كوكب الأرض وأنتمي لمجرة درب التبانة؟

مصطفى إبراهيم سيد البحيري. مصطفى إبراهيم سيد البحيري. رددتها مرتين، ثلاثا، عشرا، لا أدري، لا أدري، هل قلتُ لا أدري مرتين؟ لا أدري أيضا، رددت اسمي خوفًا من النسيان، ما زلت أعي أن هذا

الجالس أمامي صديقي القديم محمود، وأن هذه الجالسة في مواجهته هي ابتسام، محمود طبيبي وابتسام زوجتي، إذن فأنا بخير، لم تُنقص العملية من ذاكرتي شيئا.

"هل أنا بخير؟".

أول جملة نطقتُ بها بعد تركيز أطول من اللازم.

"بخير".

يقول محمود، وتهزّ ابتسام رأسها مؤكدة على إجابته:

"متى سأخرج من غرفة العمليات؟".

لم أخصص السؤال لأحدهما، فطار في الهواء يقصد كليهما، أو لا يقصد أحدهما. يرد محمود:

"أنت لم تدخل غرفة العمليات بعد يا مصطفى".

تَعبر إجابته مخي ببطء شديد، كأني لا أريد تقبُّلها، أنتظر إجابات محددة دون غيرها. ما دامت العملية الجراحية لم تُجر لي حتى الآن فلماذا يعلقون كل هذه الأجهزة والمحاليل؟ ولماذا لا تُشبه هذه الغرفة غرفتي التي قضيت بها اليومين الماضيين؟ الباب الزجاجي الذي يُفضي إلى جنينة بها شجرة كافور تتوسط أشجار برتقال مثمرة، الرجل الذي يدهن السور ثم يذهب ليدهن رصيف ميدان التحرير. هذه الغرفة كئيبة بشاشاتها الزرقاء وستائرها المظلمة، وبلاطها البارد ونوافذها المغلقة دائما، أين غرفتي القديمة، هل ستصبح مثل كل شيء قديم، يفنى في الحقيقة ثم يأخذ مكانه فوق رف

افتراضـي بين ملايين الشـعيرات الدمويـة؟ ينتقل بخفة لمخـزن الكراكيب الذي يسمى مجازا ذاكرة.

يمسك محمود بيدي، أشعر بقوة كفه وصلابتها. تُمسك ابتسام بيدي الأخرى فأشعر بنعومة كفها ورقتها.

"لقد أصابتك إغماءة مفاجئة أثناء جلوسنا على المقهى".

تقـول ابتسـام وهي تضغـط على كفي وتخلـل أصابعها بيـن أصابعي، وأفكـر فيمـا قالـت، بالفعل، لم أتذكر شـيئًا منـذ كنت أتفـرج على خيوط المطـر فـي ميـدان التحرير، صـوت القطرات وهـي تنقر الأسـفلت، قطع الثلـج الصغيرة المنهمـرة كالملـح، المقاهـي الممتلئة بالبشـر المدفونين في ملابسـهم الثقيلـة، الرجل الذي يدهن الرصيـف بدقة ويضمد كف يده بشـاش أبيض في حجم قفاز ملاكمة، حدث ذلك منذ سـاعة على الأكثر: "كم دقيقة مرت وأنا هنا؟". يبتسـم محمود: "دقيقة؟ بل أكثر من ذلك". وتلتفت ابتسام: "منذ مدة أطول يا مصطفى". هو يقول أكثر من ذلك، وهي تقول منذ مدة أطول، وأنا أقول منذ ساعة على الأكثر، وربما بعض ساعة:

"أنا أرقد هنا منذ متى يا محمود؟ أجبني بالتحديد من فضلك".

زفر طويلا ثم قال:

"منذ أربع وعشرين ساعة".

***

غـاب يوم كامل، وقع من ذاكرتي إلى الأبـد، لا أدري أين ذهب، هل يمكـن أن تصبح حياتي كلهـا أيام غائبة؟ حالة إغماء كما قالت ابتسـام،

لا أعرف كيف تحدث هـذه الحالة من الإغماء؟ لم أرَ شـيئا مما حدث، ولم يستطع أحد مهما كان يمتلك من وعي أن ينقل لي كل ما حدث، أو حتى بعضه، فله عيون ولي عيون أخرى، ولـه اهتمامات ولي اهتمامات مختلفة، هل يمكن أن تنزلق الأيام كلها إلى حالة جماعية من الإغماء؟

وجع شـديد في ظهـري وخلـع مؤلـم في كتفي، الأشـياء مـن حولي انسلخت عنهـا ألوانها، حتى سـتائر الغرفـة أصبحت باهتـة، لا أحد من حولـي إلا ممرضـة بدينـة، كانـت تضبـط عمـودا يحمـل كيسًـا مملـوءًا بمحلـول، اتضح لون ملابسـها الـوردي عندما تأملتهـا طويلا، لاحظتُ أنهم أضافوا للغرفة ستائر ثقيلة مُظلمة.

لا يمكن أن يُسـرق يوم كامل من عُمر إنسـان دون أن يشعر إلا لو كان ميتا، هذا كل ما أتذكره، للتأكيد سألت الممرضة:

"منذ متى وأنا هنا يا...؟

فأجابت وهى تذوِّب بودرة بيضاء في كوب:

"منذ مساء أمس".

تركتنـي الممرضـة وخرجـت دون اسـتئذان بعـد أن أغلقـت مفاتيح النور، لم تُبق إلا على إضاءة ضعيفة تخرج من مصباح أزرق صغير فوق سريري.

أثناء تفكيري في الزمان تغيّر المكان ببطء، رأيتني شـخصين كاملين، واحد يرقد فوق سـرير تحملق فيه عيون شاشـات زرقـاء، والآخر يخرق السـقف ويتـرك المبنى، يخترق الغـلاف الجوي، وقبل أن يترك السـماء

الأولى يتأمل الناس من تحته صغارًا ومهملين، يركبون صناديق حديدية، أو يترجّلون ويتشاجرون لأسباب تافهة، حاول الشخص الآخر الطائر أن يحطّ فوق مَن يريد مِن الناس وفشل في ذلك، فظل طائرا يتجوّل دون هبوط، فقط يضرب بيديه الهواء فيرتفع لأعلى، ثم تهمد يداه ويهدّه التعب شيئا فشيئا، حتى يعود لسيرته الأولى، يلتصق بالشخص الأول النائم فوق السرير، تُحملق فيه الشاشات الزرقاء وتتفرسه من جديد.

دخل الذكتور محمود العراقي ومن خلفه ابتسام، معًا، مرة أخرى، أيضا، من أين يأتيان، وأين يذهبان بعد كل الزيارات القصيرة إلى غرفتي؟ جلسا على الكرسيين كما كانا بالأمس، هل كانا هنا بالأمس أم في الصباح؟ لا أدري.

"جئنا لنطمئن عليك".

قالت ابتسام وهي تميل بجذعها تجاهي أكثر، "ولنسألك أيضًا. هل تحتاج إلى شيء؟". قال محمود. وفكرت، هل بالفعل أحتاج لشيء منهما وأنا في وضعي هذا؟ طريح وغائب عن الحياة منذ يوم وبضع ساعات، لا أعرف عن الوقت شيئا، لا أعرف حتى أين أنا بالضبط، في برهة قفزت آلتي الكاتبة إلى خيالي بسرعة.

"أريد أوراقي".

لم أوجّه طلبي لأحدهما، فرد محمود:

"أوراق. أي أوراق يا مصطفى؟".

قالت ابتسام:

"أوراقك لا تزال في غرفة إقامتك".

قلتُ:

"نعم. غرفتي التي تطل على أشجار البرتقال وشجرة كافور وحيدة. أليس كذلك؟".

أومأت ابتسام فسألتها:

"هل نضج البرتقال وأكل من ثماره الرجل الذي يدهن السور؟".

"دقيقتان وسأحضر لك ما تريد".

قالت وقد وصلت فعليّا لمنتصف الغرفة، قام محمود مسرعا:

"انتظري".

ثم التفت إليّ قبل أن يخرج، لاحظت أن لنظارته إطارا "موف"، وكأنها نظارة ابتسام، لم أستطع منع نفسي من سؤاله:

"نظارتك إطارها موف يا محمود".

ويرد وهو على باب الغرفة:

"هل نسيت أنني من مواليد برج القوس؟".

"القوس؟".

"مواليد برج القوس يفضلون اللون الموف على سائر الألوان يا مصطفى".

قال ثم تبعها مهرولًا، أغلق من خلفه باب الغرفة المُعقمة، تركاني وحدي.

أشـعر أن ثلاثتنا متشـابهون، نكاد نصبح شخصا واحدا متعدد الأذرع والاتجاهات، تدور في رؤوسنا أفكار لا نملك شجاعة إظهارها علنا، لا أدري؛ هل ينبغي على الإنسان أن يمتلك أدوات تعبير ممتازة حتى عندما يفكر فقط؟

بعد قليل رأيت أوراقي بجوار السرير، محفوظة كما هي، أو ربما أراد من أتى بها أن يُشعرني بذلك، امتدت يدي دون تفكير طويل إلى الأوراق التي تركها أبي في حقيبته السـوداء، تذكرت الدقائق الأخيرة له في الحياة فور أن استقر الدوسيه الأصفر فوق راحة يدي.

الحقيبة، سـوداء كالحة وبها ذرية صامتة من الأوراق، تركها صاحبها دون تمهيـد للمغـادرة، وتـرك تحـت مرتبـة الكنبة أيضـا رُزمًا مـن أرباع وأنصاف الجنيهات، وكيسًـا أسـود ثقيلًا به عملات معدنية قديمة، أعداد مكررة من كل فئة، تعريفة مشرشـرة ونكلة نحاسية وقروش كثيرة بيضاء، وعمـلات أخـرى يصعب تخمين هويتها. الأوراق التـي تركها أبي كانت فاقـدة لبعـض الحواف، يضمها دبوس كبير، منذ أعـوام طويلة وهو يغلق عليهـا حقيبته، حتى اعتلى قفلها الصدأ وأكلـت الفئران قعرها. توارى ما ترك أبي من أثر ملموس، وبقيت كلماته فقط كالبصمة.

أحملقُ في الشاشات الزرقاء من جديد.

يتبخـر مـا حدث فعليًّـا، يصير دخانًـا بدرجة خيال، يرتفع من سـطح الأرض إلى قُبة السـماء، ربما يتشكل وربما لا يصبح أي شيء. ويحدث تدهور سريع في عملية ربط الأحداث.

5

الغَسَق

أصبحتُ وحيدًا في غرفتي، لا تنطق الشاشات الزرقاء إلا بتكتكات منتظمة وهزيلة، جهاز التكييف مضبوط على درجة حرارة ثابتة، والمحاليل المعلقة أمامي تجلب لمجرد رؤيتها البرودة في الأوصال والبطء في التفكير، بالإيحاء فقط يمكنني أن أتخيل الآن أي شيء ونقيضه. قبل أن أسترسل في خيالاتي سمعتُ صوت الممرضة تقف بجوار سريري:

"أستاذ مصطفى؟".

أتفرّس في ملامحها ولا أرد، أغمض عيني على سؤالها وتفهم أنني مصطفى:

"هذه رسالة لك".

كانت تمسك في يدها قصاصة صغيرة، تناولتُها وفتحتها، خط ابتسام، سطران فقط:

"مصطفى. أعرف أنك في الساعات القليلة القادمة ستمر بمشاعر مرتبكة تجاهي وتجاه كل من حولك، سأتركك وأعود لزيارتك قبل دخولك غرفة العمليات مباشرة، اطمئن يا حبيبي، أنا بخير".

قلبتُ في دفتري الصغير، ملاحظات كثيرة عن أشياء ليس لها وجود الآن، اختفى زمنها وبقيت ظلالها تلف في الفراغ، وأنا أحاول دائما ربط

الخيوط بعضها ببعض، أرشيفي لم يعد مهما، لا أدري هل مارست عليه رقابتي الذاتية أثناء الكتابة أم لا؟ ما الذي أريد سماعه من تلك الأصوات المكتوبة؟ كأني أجلس في مكان لا أعرفه، أحاول التقاط اللحظة وعدم السماح لها بالهروب، وبرغم ذلك فقد كانت تهرب.

رسخ في خيالي صوتي الطفولي، نبرة خرجت من دوامة ساخنة. اختفى كل الماضي من أمامي بشكل مفاجئ ولم يبق إلا ما حدث للطفل. في زاوية من ذاكرتي رُفع الستار لأشاهد العرض وحدي. توقف الزمن الخارجي وبدأ عدّ جديد لزمن داخلي يسير ببطء ويخلط الأحداث. نلتفت ونتحادث، كلّ على طريقته. لا أعرف لماذا انتقلتُ بهذه السرعة إلى صيغة الجمع في الكتابة، ربما أردتُ ألا أكون وحدي.

عدتُ إلى نفسي، انتقلتُ مرة أخرى لصيغة المفرد.

عليّ أن أُجمع أفكاري لأستطيع كتابتها، أجلس خلف أوراقي ومُخي كعجين مهروس، هل كتبتُ كل ما أعرفه؟ الأوراق أمامي، اقرأ. ما أنا بقارئ، قلت اقرأ، وقد أجبتُ، ما أنا بقارئ. شردتُ بعيدًا وأنا أردد هذه الكلمات، ثم نمت طويلا كأهل الكهف.

***

استيقظتُ في الصباح التالي، حلقتُ ذقني، جرح الموسي جزءًا صغيرًا من عُنقي، مسحته فاختلطت بُقعة دم صغيرة بالماء الكثير الذي غمر وجهي، خرجت فوجدت محمود جالسا على كرسي الفوتيه الأخضر، يرتدي بذلة كاملة، لماذا لا يلبس البالطو الأبيض؟ كان مُشرقا وعينه بها لمعة، يُخفي تحت وقار ملامحه ابتسامة مكتومة:

"أنت مبسوط اليوم يا مصطفى؟".

كان يوجه سؤاله لنفسه وليس لي، يراني بمرآته التي يتخيلها، قلت:

"لا أدري".

قام يتابع المنظر بالخارج:

"الجو جميل اليوم".

لم أفكر فيما قال، فترة صمت مرت، أخذ بعدها يحدثني عن ذكرياته في انجلترا، حكى بعض مواقف مضحكة فلم أضحك، جاءت محاولة الترويح عني بنتيجة عكسية.

دخلتْ الغرفة ممرضة نهارية غير الممرضة الليلية، وقفت خلف محمود تنتظر التعليمات، غاب كل من حولي، كنتُ أفكر في نفسي بشكل دائم، سمعت صوت محمود موجها إليّ:

"أريد أن أريك شيئا".

خرجنا من الغرفة إلى الجنينة، اجتزنا شجرة الكافور وابتعدنا عن رائحة البرتقال، صعدنا ثلاثة أدوار ثم وقفنا فوق سطح المستشفى. دارت تخمينات كثيرة في رأسي قبل أن يُشير محمود إلى الشارع الرئيسي:

"ها.. هل رأيته؟".

لبست نظارتي وتأملت مكان الإشارة، لم أر شيئا، وضع محمود منظارا صغيرا على عينيه ونظر إلى الشارع نظرة متأملة طويلة، ثم رفع المنظار من عنقه وعلّقه في عنقي، قال:

"انظر".

وأنظر فلا أرى إلا أشجارا وأحجارا، أشخاصا يسيرون وبينهم طلبة مدارس:

"انتظر. سيظهر بوضوح بعد قليل".

كانت نقطة صغيرة قد بدأت بالفعل في الظهور، رجل مُسن يمشي ببطء، يمسك بشيء، سلسلة أو حبل، في نهايته كلب حراسة كبير، لم أفهم ما يريده محمود، أنزلُ المنظار عن عيني وأتركه مُعلّقا في رقبتي:

"رجل نحيف بطيء الخطوة يسير في الشارع بكلب، ما الغريب في ذلك؟".

يوجه محمود سبابته نحو الرجل والكلب:

"تأمل هذا الرجل جيدًا، إنه يمر من هنا مرتين كل يوم، مرة في السابعة صباحا ومرة في الخامسة مساء".

اقترب الرجل بعد فترة طويلة إذا ما قيست بالمسافة التي قطعها، كان يلبس "كاب" أزرق، مشيته واهنة تُظهر عجزه، يبدو مُسنًا جدًّا، نحيفًا أكثر من اللازم مقارنة بعوده الفارع، يمر العجوز بكلبه الشرس، يلف حول المستشفى وهو يتأمل الجدران المحيطة بها، يُحملق في الأسفلت وأشجار الطريق، ثم يمضي إلى حاله. لم أعرف سر اهتمام محمود بالرجل صاحب الكلب، لم تكن لديّ نية للدخول في موضوعات تحتاج لجهد ذهني، أستعد فقط لاستيعاب فكرة الغياب الكامل أثناء التخدير،

بعد ساعات سأنام على سرير في غرفة العمليات ليتم إصلاح عطب في رأسي. يقطع محمود تفكيري، يقول:

"مؤكد تسأل نفسك، ما علاقتك بالرجل وكلبه؟".

لم أرد، فأضاف:

"هذا الرجل لواء شرطة متقاعد منذ ثلاثين عاما. كان مأمورا لسجن منذ أربعين عاما أو يزيد، لم ينس يوما أنه كان يُشرف على المسجونين بصحبة كلب حراسة طيلة كل هذه السنوات. ورغم تخطيه الثمانين فإنه يداوم على هذه العادة حتى اليوم مرة في الصباح وأخرى في المساء".

"ولكنه يلفّ بكلبه حول المستشفى وليس السجن".

يتجول محمود فوق السطح، ثم يقول وهو يرسم شيئا على الأرض ببوز حذائه:

"هذا المستشفى كان سجنًا في زمن ليس ببعيد جدا".

جابت عيني المكان مرة أخرى:

"سجن؟".

يبتسم لتخفيف وطأة الكآبة التي حلّت على حديثنا:

"المستشفى مبني على جزء صغير من سجن قديم. الضابط المتقاعد يلف حول المكان بالكامل. تمامًا مثلما كان يفعل وهو في الأربعين".

كانت المعلومة جديدة وتدعو للتفكير، ولكن ما علاقتي أنا بكل هذا؟ سألت نفسي، فقال محمود:

"أنت تتصور النسيان ينتظرك دائما. وهذا الرجل لم يستطع أن ينسى طيلة أربعين عاما أنه لم يعد هناك وجود للسجن الذي كان مأمورا له، ولا للمسجونين، ولا للزمن نفسه، وبرغم كل ذلك فقد ظلت خريطة السجن القديم تشغل حيزًا كبيرًا في رأسه".

"هذا الرجل لم يُجرِ أي عمليات جراحية، عجوز لكن رأسه سليم".

يبتسم ولا يرد.

تركنا السطح ونزلنا، سرعان ما نسيت قصة الرجل، لا أعرف هل نسيتها لعدم اهتمامي بها؛ أم أنني أسقطت تفاصيلها عمدًا؟ عندما وصلتُ إلى غرفتي لمحتُ ابتسام ، بجوارها رجل بدين لا أظن أنني أعرفه، تلبس فُستانها الروز، اللون الذي أحبه، هل يحبه أحد غيري مثل اللون الموف والهريسة؟

كانت مشرقة، تعطيها البهجة جمالًا، ويعطيها الحزن جمالًا مضاعفًا، لم أتبيّن بدقة حقيقة مشاعرها هذا الصباح.

"بسَّام. هل نسيته يا مصطفى؟".

أتأمله جيدا، كان وزنه قد تضاعف تقريبا، غارت عيناه في لحوم وجهه، بدتا كخطيْ كحل مشقوقين بالكاد، ابتسم بود، أعطته سمنته وداعة ملحوظة، جلس بجواري، صافحني بيد، وكان يحمل شيئا في يده الأخرى، بعد كلمات المجاملة العشوائية في مثل هذه الظروف فض اللفافة التي كان يحملها، فإذا بها برواز فيه صورة لكتلة سيريالية ملونة:

"ما هذا يا بسام؟"

"قل أنت"

"لا أعرف"

وقف أمام سريري ورفع اللوحة فوق صدره: "هذه صورة بالأشعة المتقدمة لمخك في حالته الحالية، أنا في مصر منذ يومين، أجهز لك هذه اللوحة يا مصطفى".

أرفع جزعي قليلا:

"وفيمَ يفيد أن تصور مُخي في لوحة؟"

كانت ابتسام تتابع أخاها بعينيها دون كلام، حافظتْ فقط على نصف ابتسامة ثابتة، قال بسام:

"المواجهة يا زوج أختي. المواجهة مع أنفسنا هي أول طريق العلاج".

أتأمل البرواز الذي يحمله على صدره مرة أخرى، لم تحفزني رؤية هذه الألوان المتداخلة على أية مواجهة، توقعت أن يكون غيابه الطويل قد غيَّر طريقته في التفكير، لم يلاقِ مني أي تجاوب مع فكرته فوضع البرواز جانبا واستعاد قليلا من روح الدعابة:

"على فكرة. أنا ممكن أجري لك العملية أفضل من صديقك الطبيب هذا. هو أخذ خبرته حياللـه من انجلترا، أما أنا فلديَّ خبرة من السودان".

يدخل محمود ويصافح ابتسام وأخاها، أجذب زوجتي من ذراعها:

"لماذا لم تأتِ معك؟"

"مَن؟"

"فريدة"

تأملتني كأني أسألها عن شخص ميت، ابتسمت بود ولم ترد.

كانت تحمل علبة معدنية مرسوما عليها عروسان يقفان في بستان، فتحتها وأعطتني منها قطعة شيكولاتة، مد محمود يده، أخذها من يدها وهي في منتصف الطريق إليّ: "جميع الأطعمة ممنوعة اليوم يا ابتسام". كانت المرة الأولى التي ينطق باسمها أمامي منذ سنوات بعيدة، ابتسم كعادته لتخفيف حدة التعليمات الطبية القاتمة، ثم ألقى بقطعة الشيكولاتة في فمه، قال بلذة واضحة:

"استعد يا بطل. مساء اليوم سندخل غرفة العمليات معا".

كرهت كلمة "بطل" بسبب تكراره لها.

خرج محمود وبسام وبقيت ابتسام معي:

"مصطفى أنا أحبك جدا".

كان غريبا أن تقول ذلك دون أن أسألها.

قلت:

"أنا تمام"

هل أطمئنها أم أطمئن نفسي؟ بدأت أشعر بصعوبة في استخدام الكلام، كثيرا ما أعجز عن معرفة كيف أساعد نفسي، مرحلة بيضاء من محاولات الفهم، أرتد فيها لمرحلة ما قبل معرفة الكلام، أسرح في الملكوت دون عثور على كلمة أرد بها، فأفضّل الصمت والانسحاب، فقط أحاول حفظ توازني أمام مَن يحدثني:

"لقد أخطأت كثيرا بحق هذه الطفلة".

تنتبه ابتسام:

"طفلة"

"فريدة. أخطأتُ لأنني لم أستطع أن آتي بها إلى الحياة".

الفستان الروز الذي ترتديه ابتسام يمكن قصه وتفصيله لفريدة ثلاثة فساتين، لا أعرف لماذا تخيلت ذلك، لم يأخذني من سرحاني إلا صوت ابتسام:

"ومن تكون فريدة؟"

دافعتُ عن خيالي، وعلا صوتي:

"الطفلة التي تضع فوق رأسها قبعة مزركشة بالورود، ألم تقدمي أوراق التحاقها بمدرسة القديس يوسف؟"

تُثبّت عينها في عيني:

"أنا لم أحدثك من قبل عن إنسانة اسمها فريدة تضع فوق رأسها قبعة مزركشة بالورود، أما مدرسة القديس يوسف فقد كانت مدرستي".

أبحث عن الكلمات ولا أجدها، تاهت مثلما يتوه كل شيء أحاول البحث عنه فيطير ويتبدد كدخان.

تقترب ابتسام من باب الغرفة دون كلام، تلتفت وتلقي عليَّ نظرة متعجلة عابرة، أثناء توجهها إلى باب الغرفة ناديتها، حملتُ مُخي الذي في البرواز ومددت به يدي إليها:

"خذي هذه. لا يفكر جميع الناس مثل بعضهم البعض. يمكنك اعتبارها ذكرى في أسوأ الظروف".

تأخذ ابتسام البرواز وتخرج.

لأول مرة أنام دون أن أطفئ الأنوار.

***

يدٌ تهز سريري برفق فأصحو، أرى أمامي رجلا يبدو أنه لا ينتمي لطاقم الأطباء، ولا حتى للممرضين، يحمل حقيبة صغيرة:

"الأستاذ...".

يُخرج ورقة من جيبه:

"الأستاذ مصطفى إبراهيم سيد البحيري؟".

أهز رأسي فيفتح حقيبته:

"أنا آسف. عملي يفرض ذلك يا أستاذ".

أستسلم للرجل بشكل غريب، يتساقط ما تبقى من شعري المنعّم بالكريم، أتابع رحلة سقوطه، أتحاشى النظر في المرآة بعد الحلاقة.

ينصرف الرجل بحقيبته بعد أن لملم شعري ووضعه في كيس، جزء مني أصبح يرقد في الزبالة.

يدخل محمود وبصحبته شخص آخر لا يرتدي زي الأطباء، لكن له الطلّة الطبية نفسها، جاءت ابتسام متأخرة بخطوتين، كنت نائما على السرير، حليق الرأس شارد الفكر، أملّس بكفي على رأسي الناعم كل بضع ثوانٍ، أمسكت ابتسام أصابعي وقبّلتها، وقال محمود:

"لا تقلق يا مصطفى. أنت بخير. سأذكرك بهذه الكلمات بعد ساعات قليلة، عندما تستيقظ في الصباح وتصافحنا بأسمائنا كأن شيئا لم يكن".

دخلنا ثلاثة، أنا والدكتور والرجل الذي بصحبته إلى غرفة لها باب أبيض وعوينتان زجاجيتان، الغرفة باردة والإضاءة فيها باذخة. يرتدي الرجل الذي دخل مع محمود بالطو الأطباء، يعبّئ سائلًا أصفر في زجاجة صغيرة، يقترب ويفتح غطاء الكانيولا، يسألني:

"الجو جميل اليوم. أليس كذلك؟".

وأرد:

"ربما".

الجو غائم بالخارج، ربما تُمطر بعد قليل، أرى نفسي في زجاج النافذة، أتأمل ملامحي جيدا، كانت عيناي منتفختين كملاكم مهزوم.

يسألني الرجل من جديد:

"هل تُحب المطر؟".

وأرد:

"أعرف أنك ستُخفيني عن نفسي نصف يوم. لكنني أحتاج لنصف ساعة. اتركني فقط نصف ساعة. من فضلك. لن أزيد على نصف ساعة. تذكرتُ شيئا مهما يجب أن أقوم به الآن".

***

فريدة..

يا أريجي الطازج وعطري المُعتق، أنتِ لم تري النور بعد حتى يمكنك أن تفهميني، ما أجمل أن يُخاطب إنسان شخصا غير موجود، يسرّ إليه بكل ما يؤرقه، كل ما يخجل منه، سيرتكِ تجعلني مسرورا بالعالم، ظلكِ الأبيض، ينبوع ضوء يهمس بالحياة، يغمرني، إياكِ أن تفعلي ما لن أسامحكِ عليه أبدا، ألا تأتي.

أراكِ الآن وأنتِ تمضغين لبانة تلتصق بوجهك الأبيض، سرعان ما تلفظها بشرتك الناعمة فتلبد في شعرك الأصفر، أمسك رأسكِ الصغير بين كفيّ الكبيرتين، خنصرايَ على شحمتيْ أذنيكِ اللوزيتين، ويملّس إبهاماي على حاجبيكِ، ثم أنظر في البؤبؤ الخروبي الصغير، أتأمل في عينيكِ محاولة استكشاف العالم، تغمضين فيأخذكِ الوسن، تطمئنين دائما وأنتِ معي.

لقد كتبتُ شهادة ميلادكِ بخطٍّ خيالي، سيعثرون عليها في قعر درج ما، في يوم ما، لقد منحتكِ الحياة وانتهى الأمر، أن تكوني كائنا مُخمَّنا

فهذا أفضل بكثير، وهل يوجد أجمل من سيرة غير مكتملة؟ عندما تتمين العام سأصنع لكِ مشّاية عند "أبو مديحة"، هل تعرفين "أبو مديحة"؟ أنا نفسي أستدعيه بصعوبة، كل ما أتذكره أنه كان موظفا أصلع ومات شابا، هو الذي صنع لأبيكِ مشاية خشبية، كنتُ أتسلَّقها محاولا استكشاف العالم.

أريد أن أنبهك لبعض الوصايا السريعة:

(1) كوني جريئة ولا تهابي الكبار، لا تكوني خجلة مثل أمك، لا تتركي أحدا يفسد عليكِ طفولتكِ بكلمات سخيفة مكررة يقولها الكبار في كل المناسبات.

(2) شخبطي العالم في أوراقكِ كيفما شئت، اخلطي أحداثه بخطوط خيالك، سرعان ما تكبرين فيكتشف علماء النفس معنى لكل خط وكل دائرة وكل قصاصة مهملة في أوراق طفولتك، سأحتفظُ بكل شخبطة في كتاب مهم، لأفاجئكِ عندما تكبرين، عندما يتحسَّن خطك وتُقدرين معنى الكلمات.

(3) صدقي فقط من يتكلم بحب، فكلنا نقول كلاما خاليا من الحب في الغالب، الكبار دائما يربطون تاريخهم بكل شيء يتغير من حولهم، فهذا المبنى كان كومة رمال، وهذا المترو كان صفّين من أشجار الكافور، وهذا المتحف كان تكية ومسجدا قديما، التاريخ بلا حب مجموعة أحجار وأخبار. أريدك أن تعرفي أنني أحبك، أحبك جدا قبل أن أراكِ، وربما أحبك جدا لأنني لم أركِ.

لقد أصبحتُ كبيرا أنا أيضا، وسخيفا، أُملي عليكِ نصائحي في بنود، 1، 2، 3 كأنها اتفاقية دولية.

فريدة..

يا شعاع النور، أتدرين ما هي مشكلة أبيكِ الحقيقية؟ أنه يحمل فوق رأسه قفصا مليئا بالطيور، وكلما تعثّر في أمر من أمور الدنيا أطلق سراح واحدة، تعثّرتُ كثيرا في الآونة الأخيرة، فلا أريد أن أغلق باب القفص.

فريدة..

أتمنى أن أصف لكِ العالم، أسمع الآن صوتكِ يتسلل: "سأعيشُ العالم يا أبي وأُجرِّبه بنفسي". أعرف ذلك يا فريدة، لكن دعيني أحسُّ حياتي جديرة بأن تُعاش لأن ذرية ضعافًا يحتاجون مني بعض الأشياء، دعيني أتخيل ذلك الإحساس الجميل.

نسيتُ أن أصف لك أباكِ على ما يبدو، إن أردتِ اختصاري في سطرين سأكون على النحو التالي: "شخص ظنّه الناس ملاكا لكنه خذلهم. وظنه آخرون شيطانا فخذلهم أيضا. رجل عاش بعقل طفل وقلب حمامة، ربما تقرئين هذه الورقة وفتات الشيكولاتة يقع على مريلتكِ، وربما تقرئينها وأنتِ في انتظار ولد رأى أنكِ أجمل إنسان في الدنيا، وربما تقرئينها لأحد أبنائك وأنتِ في مثل عمري، وربما.. لا. لا أريد تصور ذلك الاحتمال، أنكِ لن تقرئي كلماتي أصلا.

فريدة..

أنتِ أفضل تعريف للحياة.. أما قبعتك المزركشة بالورود، فهي أفضل تعريف للجمال.

سأقصّ عليك أشياء لا يعرفها أحد، سر بيني وبينك فقط. هُس هُس. اتفقنا؟ لكي أستطيع مواصلة الحياة ولا أموت كانت جدتك سكينة تلبسني ملابس البنات، ما زلتُ أحتفظ بصورتين أخفيهما عن الأنظار، واحدة بفستان أبيض قصير، وأخرى بتنورة مزخرفة. هُيئ لي أن جدتك كانت تلبسني ملابسكِ أنتِ، ربما كانت تعرف أنني سأستدعيك في زمن لاحق.

الوقت لن يسعفني لكتابة المزيد من أجلكِ. فالساحر جهز سائل السحر وينتظرني، ربما أغيب وأعود، وربما أغيب ولا أعود.

فريدة..

لقد أصبحتِ في الخامسة ولا تزالين تمصين إصبعك، منذ الآن، لابد أن تتعلم أصابعك شيئًا أفضل، لابد أن تتعلم الكتابة.

***

سائل بارد يسري في شراييني، يتدفق ببطء ويمحو من طريقه تركيزي مع الكلمات ومعانيها، يغيب محمود وتبهت ملامح الرجل الذي لا يزال يُفرغ السائل البارد في ثقب الكانيولا.

يترنح وعيي، تجتاحني حالة من الشمشمة، أتوجس من أن أُخرج أي إفرازات.

أشعرُ أنني أرى رغم إغماض العينين، تلف فوقي دوائر من دخان يتبدد ويتوه تشفطه الإضاءة القوية المتوهّجة فوق رأسي،، تأخذني تروس هوائية وتلف بي، بعد ذلك أحسّ يدي ثقيلة، كأنها طمعت في جرعة البنج وحدها، هزة خفيفة في السرير، أصابع تمسك كفي، وكفي الآخر لا أشعر به، كأنه غير موجود، جسدي كله غير موجود، يسبح في بحر من رصاص، ثقيل لدرجة الاختفاء، جفناي لا يستطيعان الانسحاب لأعلى.

بدأت الأصوات تتسرب من مسامعي، متقطعة، متداخلة، تبخرت كل الكلمات من رأسي بسرعة، البنج لا يعطيها فرصة طويلة للاستمرار في دماغي المزدحم، وبدأت بعض الصور تتسلل مصحوبة بروائح.

سمعتُ صوت باب يُفتح، ثم صوت باب يغلق، ثم صمت تام في الغرفة، لم أتأكد من أنها غرفة، كنتُ أشعر ببرودة في أوصالي، كأنهم تركوني في ديب فريزر. اهتمامي ضعيف بما يحدث، يتبخر كل شيء من رأسي كالسبرتو.

أرى محمود وهو أصغر سنا، نجلس أنا وهو في شقة قديمة، كنا ثلاثة رؤوس في الغرفة رغم أنه لا أحد معنا، كان الرأس الثالث جمجمة دروس التشريح.

لم أغب عمن حولي بشكل كامل، هل لا تزال ذاكرتي قادرة على الصمود قليلا؟ أم أن جرعة البنج فاسدة؟

لا أعرف هل نطقتُ بهذه الكلمات أم تمنيتها؟

تتبـدل الكلمات بصور متتابعة بلا أصـوات، أطياف تلف من حولي، ولا تقترب مني.

***

جفناي ثقيلان، تدريجيا أشـعر بضوء ضعيف يتسلل، وأسمعُ صوت بـاب يغلـق، أرقـد علـى كوكـب لـه جاذبيـة أشـد مـن الأرض، ملتصقُ بسـريري، أعـرف معنى كلمة ملتصـق، وأدرك ما هو سـريري، التفاصيل لا تزال موجودة. مُغمض العينين أنا، إشارات ضوئية تتقافز كقطع معدنية طائرة، سـبائك الأفكار تسـبح في كُتل كبيرة لا تُفسـر شـيئا، الأحداث لا تسير بشـكل منطقي مثل قطع الشـطرنج، تختلط الأسـماء بالأشخاص والأشـياء، وأشـعر بوخز، كفي ثقيلة لا أسـتطيع رفعها، يـد أخرى تتولى ذلـك. ببطء من يخـرج من تحت ماء عميق أفتح عيني، أسـتيقظ، أشـعر بسـعادة بالغة لأنني وجدتُ نفسـي، لا أزال أحيا، مسـتمرا في المغامرة. ألقـوا فوقـي معطفـا، لـم تكن أمـي معي، لـم يسـتمر إحساسـي بالأمان لفتـرة طويلة، أمامـي ممرضة ترتدي زيا برتقاليا، شـعرها ملموم للخلف وضـارب في الحُمرة، كانـت تنفذ بعض التعليمات فـي صمت، هممت أن أسألها عن الوقت ثم تراجعت، خفت أن ينطق لساني بما لا أود قوله. وجهـتُ بعض الأسـئلة لنفسـي وأنـا لا أزال أنظر للممرضـة. هل عدتُ بكامـل لياقتي الذهنية، هـل انتهت العملية أم أن مرحلة منها فقط أُنجزت ويجـب علـيّ الاسـتعداد لجولة جديدة بعد قليل، لم يمسسـني النسـيان بممحاته، فأنا أتذكر، لا أزال أحتفظ ببعض الكلمات في رأسي، بل أشعر دون مبالغـة أننـي أتذكر أفضل مـن ذي قبل. أين محمود، ذهب ليغتسـل

من الدم، سيخلع البالطو ويرتدي "اسموكن" ينفع للسهرات السواريه، مؤكد أنه لم يرتكب أخطاء طبية داخل تجويف رأسي، لابد سيدخل بعد قليل ليهنئني على نجاح التجربة، هل مجرد تذكري للأشياء التي أعرفها أصبح نجاحا، هل سيعترف لي بأخطائه التي ارتكبها في غرفة العمليات، لا أظن أن طبيبا يغامر بفعل ذلك، يمكنه أن يتأسف فقط لأنه داس على قدمي بالخطأ، لكنه لا يتأسف لو أفسد رأسي بالخطأ، الاعتذار ليس صالحا للجميع. سمعتُ طبولا وشخاليل ومزمارا، ورأيت أطفالا يحرثون الأرض بأقدامهم الصغيرة، العيال يسيرون في قطار وأنا في الذيل أتبعهم، يعيدون الكلام نفسه مرات ومرات: "أبو مختار دخل الدار يجيب مزمار، وأم مليكة لابسة البيكة وراكبة حمار". يهبّ فيهم الكبار، يجرون وينفرط القطار، ثم يعود من جديد بسرعة بعد انشغال الكبار بأشياء أخرى، يترك قطارنا بيتنا القريب ويبتعد، نلف لفتين حول الصوان، عمي يلبس عباءة جديدة لها رائحة حلوة، يسير بين رجال يضيق بهم الشارع، كلهم يرتدون جلابيب مكوية، ثم يأتي رجل سمين ووجهه أحمر، يلبس جلابية أكثر نظافة ويضع فوق رأسه المدوَّر عمامة حمراء تشبه قبة مسجد، يستقبلونه عند أول الشارع، يجلسونه على كرسي كبير جدا وله مسند ذهبي، يضعون أمامه كتلة حديدية تجر سلكا طويلا، يسعل الرجل ويشرب من كوب به سائل أصفر، ثم يبدأ صوته في رج الشارع، بنات ونساء ينظرن من البلكونات، يلف قطارنا حول سماعات كبيرة سوداء، يردد العيال نشيدا جديدا لا أتذكره، يخرج عمي بالعباءة ويجري وراءنا، ثم يتلفت حوله ويتوقف عن الجري، شيئ ما يمنعه من الاستمرار في مطاردتنا، يعود للصوان، ونعود للقطار. نصل إلى مكان

العنزة الصغيرة التي كنت أحلبها دون أن أشـرب من لبنها، أوزع سـائلها الأبيض على أصدقائـي دون مقابل، لا أجدها مربوطـة في مكانها، فقط رأيـتُ أرجلها ورأسـها دون أن أرى مـا بينهما، أطرافها راقـدة فوق بقعة بُنية كبيرة تفرش الأرض، وللمكان رائحة غريبة. قصص تمر عبر شـريط مخـي دون وعي كامـل مني، وربما دون وعي أصلا. لمـاذا يقف أبي هنا فجأة، بجوار سريري، هل جاء ليطمئن على حقيبته؛ أم جاء ليطمئن على صحتي، هـل حقيبته بها أوراق كتبها أم جثث الأحداث التي قضت، كان ممسكا بشيء يشبه "ترمومتر" كبيرا، هل جاء الآن ليقيس درجة سعادتي، الترمومتـر مُقسّـم مـن واحد إلى عشـرة، لا أدري هل الواحـد هو أقصى درجـات السـعادة أم العشـرة، ظـل صامتـا لفتـرة طويلة، في ذهنـي تقفز الحقيبة والأحداث التي تركها أبي كامنة خلف سَّحاب السوستة. ستأتي ابتسـام فـي الصباح، ومحمـود يتبعها، الرجل كلب امـرأة، مقولة لا تزال صالحة لهذا الكوكب. ألا يُحسـب لمحمود أنه نجح في شـيء، شعوري بأن الليلة صافية، وذهني أيضا، هل يُحسـب ذلك لمحمود كونه جراحا؛ أم يُحسب لطبيـب التخدير المجهول، ذلك السـاحر الـذي يُخفيني عن نفسـي بوخزة صغيـرة، تهت بعدها وتوزعتُ بين المجـرات البعيدة، هل أصبحتُ بعد العملية إنسـانا مُركبا، هـل أفرزت كيمياء مُخي مادة جديدة جعلتني أفكر بشـكل مختلف، مؤكد لم يعد مخي يفرز البروتينات نفسها فـي الدم، هل تغيرت خواص التركيز والتذكر، لماذا أُصر على أنني كنت موجـودا في غرفـة العمليات، رأيته وهو يحتفظ بالجـزء المقتطع، الجزء الخبيـث، يرمـي به في جزيرة صغيرة، جزيرة يتجمع فيها كل ما فاض عن الناس وأعطوه مسميات شريرة، كبد تالفة، رئة مدخنة، ذراع مبتورة، قلب

تكاسـل عن العمـل، أعضاء أخرى تركـت أصحابها بلا سـبب، الأجزاء المستأصلة تصنع حياتها المختلفة فوق جزيرة بعيدة، فرانكشتاين جديد، سيسـتخدمها مسـاعد مخـرج لصناعة فيلم خيـال علمي. اسـتغرقتُ في النوم فترة طويلة، أرى أياديَ فقط تدفع سريري خارج الغرفة، يدخلونني غرفـة أخـرى مجـاورة، أنتظـرُ أن يعيدونـي إلى المحفـة البرتقاليـة التي تجـري علـى قضيبيـن، يبـدو أن مرحلة المحفة قـد انتهـت ودخلتُ إلى مرحلة جديدة، قصر المسـافة لم يمنعني من الإحساس باللذة، كلما اهتز السـرير كنتُ أشـعر بانتعاش متقطع وإفاقة، عندما استيقظتُ وجدتُ أبي فـي الغرفة الجديدة أيضـا. لم أعد أقول "ذات قبـل مرضي" فقد أجريتُ عملية جراحية ناجحة وتبددتْ جميع الهواجس، نبض القلب سليم على الشـعرة، ومشـاعري تجاه مـا أرى منضبطة على المسـطرة، ووزني، لقد عملتُ ريجيم وأنا في البنج، أصبحتُ خفيفا مثل ريشـة طائر، كان شـيء واحـد فقط يزعجني، لا أشـعر بمعدتي وأمعائي، لا أعـرف هل أنا جائع أم لا أفكـر فـي الطعام أصلا، أما غيـر ذلك فلا يزعجنـي على الإطلاق، مـا طمأننـي أنني أرى أبـي، دائما يأتـي صامتا، ملامحه حزينـة ومهمومة طوال الزيارة، يجلس بجواري قليلا ثم يخرج. أما الممرضة ذات الشـعر الضارب فـي الحمرة فتغيّـر محاليلي برفق، وأتخيلهـا دائما في حضني، أخلـع عنهـا زيهـا البرتقالي فأصلُ لقميص أحمر شـفاف، يُظهر بسـهولة حواف جسـدها من كل الاتجاهات، لم أستطع رفع ذراعي بسبب البنج، احتار القرار في رأسـي بين الرغبة والقـدرة. قبل أن أمد يدي إليها مدت، عدلت جذعي وأجلسـتني على كرسي متحرك، دارت عجلات الكرسي وبدأ المشـي يصنع الطريق، تخيلتُ أننا أصبحنا مشـهدا في فيلم وثائقي،

بدأ الكرسي بالتهام ستائر "بيليسيه" كريمية تحيط بنا طوال الطريق، بدأ الكرسي بالتهام العلامات الزرقاء والخضراء والحمراء التي تحدد الأقسام للمشاة، عندما أسرع الكرسي اختفت الممرضة، كانت مصابيح زجاجية تضيء وتطفئ، والكرسي يجري، لفرط سرعته حسبته يطير، وأنا، رائد فضاء. هدأت السرعة بعد مسافة طويلة، توقف الكرسي بي وهو لا يعرف له هدفا محددا، بعد قليل رأيت ظِل الكرسي واضحا على الستائر "البيليسيه" الكريمية، كأنني فوقها مرسوم بالرصاص. وبدأت أسأل نفسي أسئلة عن نفسي: "كم عمرك يا مصطفى، ما لون بشرتك الحقيقي، ما هي رائحتك، ما لون شعرك، هل أنت متأكد من وجودك الآن هنا؟"، وقبل أن أُجيب عن الأسئلة أشم روائح وأبخرة، وأسمع أصوات أطفال يعيدون نشيدا سمعته كثيرا من قبل "أبو مختار دخل الدار يجيب مزمار، وأم مليكة لابسة البيكة وراكبة حمار". نجري معا، ندخل في ثقوب الجدران كالنحل، ثم نخرج من الجهة الأخرى، ونهلل، تبطئ حركتي ويخفت صوتي، ثم أبحث عما كنت أفكر فيه منذ برهة.

تمت.

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

قبل المساء

"حدثتني عن أشياء كثيرة متفرقة لا رابط بينها، الألوان التي أحبها، الأفلام التي أفضل مشاهدتها، بعض ذكريات عابرة عن أيام زواجنا الأولى، لعبنا شطرنج وهزمتها مرتين، هل دبرتْ لتلك الهزيمة حتى تُظهرني قويًا أمام نفسي، ماذا يعني ذلك بالنسبة لرجل في السادسة والأربعين؟ لا أستطيع وضع هذه السن في خانة معينة، فلا أنا شاب ولا أنا مُسنّ، أحيانًا يذوب الخط الفاصل بين المرحلتين، وأحيانًا يتضارب فينتج عن ذلك بعض تصرفات مرتبكة ومُخجلة".

***

صحفي في منتصف الأربعينيات، رؤيته محددة عن الناس والأشياء.. ماذا لو تعرض للنسيان بشكل خارج عن إرادته؟ فيقرر أن يجلس إلى أوراقه ويكتب كل ما يعرفه، وكل ما يظن أنه يعرفه. لكنه يكتشف أن ما رآه أمامه على الورق قد شكّل حياة ثانية لا علاقة لها بما عاشه بالفعل.

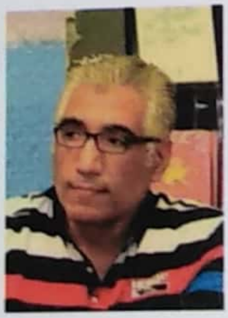

عمرو العادلي، كاتب مصري وباحث في علم اجتماع الأدب، صدر له خمس مجموعات قصصية منها: "حكاية يوسف إدريس" 2012،"عالم فرانشي" 2016، كما صدر له خمس روايات منها: "الزيارة" 2014، "رحلة العائلة غير المقدسة" 2015 "اسمي فاطمة" 2017..وكتب رواية واحدة للأطفال، وقد ترشحت في القائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد لأدب الطفل 2018، كما حاز على جائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن مجموعة "حكاية يوسف إدريس" 2015 وجائزة الدولة التشجيعية عن رواية "الزيارة" 2016 وجائزة اتحاد كتّاب مصر عن رواية "رحلة العائلة غير المقدسة" 2017.

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

9 789777 951982

الدار المصرية اللبنانية